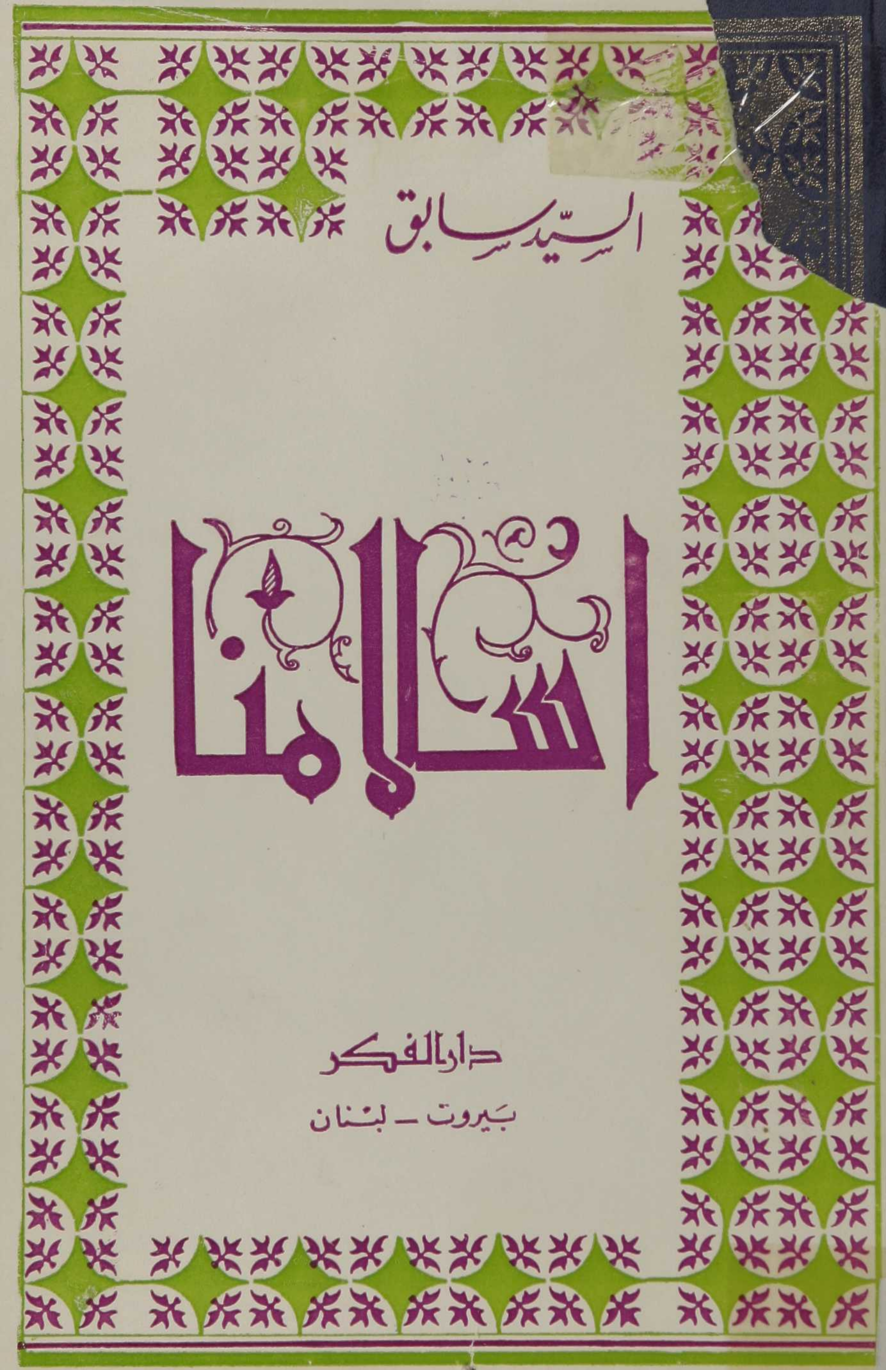

السيد سابق
إسلامنا
دار الفكر
بيروت - لبنان

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

عنوان المؤلف : القاهرة - مدينة نصر - الحي السابع ناصية ش عبد الشافي محمد
هاتف : ٦٠٤٧٣٨ السيد سابق

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : لبنان - بيروت - حارة حريك شارع عبد النور
هاتف ٢٧٣٦٥٠ - ٢٧٣٤٨٧ ص . ب ٧٠٦١ برقيا فيكسي

بسم الله الرحمن الرحيم

- اللهمَّ ربَّنا وربُّ كلِّ شيء...

أنا شهيد أنك الربُّ وحدك لا شريك لك

- اللهمَّ ربَّنا وربُّ كلِّ شيء...

أنا شهيد أنَّ محمّداً عبدك ورسولك.

- اللهمَّ ربَّنا وربُّ كلِّ شيء...

أنا شهيد أنَّ العباد كلّهم أخوة...

- اللهمَّ ربَّنا وربُّ كلِّ شيء...

إجعلني مخلصاً لكَ وأهلي...

في كلِّ ساعة من الدّنيا والآخرة.

يا ذا الجلال والإكرام...

إسمع واستجب...

- ألله الأكبر الأكبر. نورُ السّموات والأرض
- ألله الأكبر الأكبر. حسبي الله ونعم الوكيل

الله الأكبر الأكبر

محمّد رسول الله

تمهيد

١ — هل الدين ظاهرة اجتماعية ؟

من الظواهر التى تشاهد فى المجتمعات البشرية ، على اختلاف درجاتها فى سلم التطور ، ظاهرة التدين :

فالمجتمع البدوى الذى لم يعرف شيئاً عن الحضارة ، له معتقداته وعباداته، والمجتمع الحضرى الذى بلغ شأواً فى العلم والمدنية، له كذلك إيمانه بالغيب وطقوسه الخاصة .

ولظهور هذه الظاهرة وبروزها ، رأى العلماء أنه كلما وجد مجتمع وجد معه دين ، أيًّا كان هذا الدين ، وأيًّا كان مصدره .

٢ — شذوذ المجتمع الملحد :

ولا يعترض على هذا . بأن المجتمع الشيوعى ، قد أسقط الدين من حسابه وأقام حياته على أساس : أن لا إله ، والحياة مادة

فإن هذا لا يعبر فى الواقع عن نفسية المجتمع ، ولا يترجم مشاعره ترجمة صحيحة.

إذ أن فكرة هذا الانحراف الدينى ، نبتت فى ذهن بعض الأفراد ونمتها الظروف الاجتماعية الخاصة . ظروف الفقر والحاجة والحرمان . وساعد على تقوية جذورها، وبسط سلطانها، أنه لم يكن ثمة دين، ينير العقل

أو يطمئن القلب ، فضلا عن أن المتظاهرين ، بالتدين كانوا مظهراً للتخلف والرذيلة ، بل كانوا مضرب المثل فى التفاهة والحقارة ، ولم يقضوا يوما واحدا فى جانب المحرومين ، وإنما كانوا دائما عونا للقياصرة ، وسنداً للمستبدين .

فهذه الفكرة الإلحادية ، ليست وليدة علم ، ولا ممثلة للفطرة الإنسانية وإنما هى فكرة شاذة ، أوحت بها الظروف القاسية ، وخلقتها البيئة المجهدة ، وروّجت لها الأحقاد التى ملأت الصدور أمدا طويلا . ثم حمل الشعب عليها حملا ، وأكره عليها إكراها ، دون أن يكون له رأى أو اختيار .

ومنذ قيامها ، وهى فى حماية الحديد والنار .

وأعتقد أن الفطرة الإنسانية أقوى من جميع القوى التى تحاول أن تطمسها ، وتغير معالمها ، وأن لها الغلبة والنصر مهما طال الزمن .

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ (١) » .

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢) » .

٣ — الدين باق خالد :

وإذا كان للدين هذه الجذور العميقة فى النفس الإنسانية ، فإنه لا يتصور أن يأتى يوم يعيش الناس فيه من غير دين ، بل ستبقى النفس تنزع إليه ، لأنها تنزع إلى شىء هو من طبيعتها ، وتشعر بفراغ كبير إذا تخلت عنه .

---

(١) سورة الرعد آية ١٧ . (٢) سورة إبراهيم آية ٢٦ .

وَليست المشكلة هى مشكلة الدين ، من حيث هو، فالتدين غريزة كما قلنا ، وَكما يقرر الإسلام .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١) » .

وفى الحديث الصحيح —

(كُلُّ مَوْلودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ..)

٤ — مشكلة عدم وجود الدين التعليمي :

وَ إنما المشكلة الحقيقية ، هى عدم وجود الدين التعليمي الذى يفتح آفاق الفكر، وَ يطلق الطاقات الكامنة فى النفس، وَيدفع إلى السمو الروحى ، وَالكمال المادى .

لقد كان الإنسان فيما مضى ـ ولا يزال ذلك فى الطبقات الجاهلة ـ يستسلم لما يلقى إليه من عقائد ، وَيذعن لما يقال له من دين ، وَلا يكلف نفسه مشقة البحث ، وَلا مؤونة الدرس . وَلو كان الذى يلقى إليه من الخرافات ، التى لا يصدقها العقل ، وَلا يعترف بها العلم .

وَلكن هذا الأمر قد تغير الآن فى نظر الإنسان الذى يعيش فى عصر العلم ، إنه يريد من الدين أن يُقْنِعَ عقله ، وَ يُرْضِي طُمُوحه، ويُسَايِرَ تَقَدُّمَه وَ يُجاري تطوره . وَ لا يحرمه من ثمرة جهده ، وَلا لذة بدنه .

وَربما كان عدم وجود دين ينطوى على هذه المبادىء ، هو أحد

---

(١) سورة الروم آية ٣٠ .

الأسباب التى صرفت بعض العلماء الذين أسهموا فى بناء الحضارة عن الدين ، وَجعلهم يتجهون إلى العقل وَحده ، يستفتونه ، وَيحتكمون إليه ، ولا يَعوّلُون فى قضية إلا عليه .

ولم تتح الفرصة لهؤلاء أن يطلعوا على مبادىء الإسلام الكريمة ، وتعاليمه السامية، وإن كان أتيح لبعضهم أن يعرف الإسلام ممثلا فى أعمال من ينتسبون إليه ، وهى فى وَاقعها تشويه لجمال الإسلام، وَعرض سيِّء لمبادئه الحقة فكان حكمهم عليه كحكمهم على غيره من الديانات الأخرى.

٥ — الإسلام هو الدين التعليمى :

إن الإنسان فى هذا العصر - بالرغم من المغريات المادية التى صرفته عن الدين - تهفو نفسه إلى دين موثوق بأصله من جهة ، وقادر على أن يَسْمُوَ به إلى الكمال المادى والروحى من جهة أخرى .

ونحن نجزم فى إيمان وفى ثقه .

بأن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذى توفر فيه هذان العنصران ، لأنه هو الدين الذى وضحت معالمه ، وكَمُلَتْ مبادئه ، وثبتت مصادره ، وحفظت من التغيير والتحريف ، والتبديل والتَّصْحِيف .

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[1] » .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[2] » .

---

(١) سورة حم فصلت آية ٤٢ . (٢) سورة الحجر آية ٩ .

وأنهُ كفيلٌ بأن يحقق للإنسان ما يَنشُدُهُ مِن ارتقاء، وما يرجوه من كمال ورفعة .

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ من اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بإِذْنه وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1] »

٦ — الإسلام دستور متكامل :

والإسلام هو الدستور الكامل ، والمنهج الذى استهدف إقامة حياة إنسانية رفيعة . . . يتحرر فيها العقل والضمير ، وتستقل فيها الإرادة والتفكير ، ويشعر فيها كل فرد بأنه سَيِّدُ نفسه ، ومَالِكُ أمره ، وأنه لا سلطان لأحد عليه ، سوى سلطان الحق ، الذى يَعلو ولا يُعلَى عليه .

وهو الذى أهاب بالناس أن يفتحوا عقولهم ، ليعرفوا آيات الله فى الكون ، وسننه فى الخلق ، وحكمته فى الطبيعة .

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ[2] » .

وتعطيل قوى الإدراك ، وعدم الانتفاع بها ، يعتبر فى نظره جريمة ، يُسْأَلُ عنها الإنسان ، ويحاسب عليها الحِسَابَ العسير .

« إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كلُّ أولئكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً[3] » .

والإسلام بعقائده ، وعباداته ، ومُثُله ، وقِيَمِهِ ، قد بعث الحياة

---

(١) سورة المائدة آية ١٦ . (٢) سورة الأعراف آية ١٨٥ . (٣) سورة الإسراء آية ٣٦ .

فى العواطف الجامدة ، واليقظة فى القلوب الهامدة ، وحرَّكَ حَوَاسَّ الخير فى الإنسان لِتَتَّسِعَ نفسه للعلاقات الحسنة، والصداقات الطيبة، والمعاشرة بالمعروف .

وإنه إلى جانب هذا حارب الظلم ، والبغى ، حتى لا تُهْدَرَ كَرَامَةَ أحد ، ولا تُنْتَهَكُ حُرْمَةَ إنسان ، ولا يشعر ضعيف بهوان ، ولا يحسُّ فقيرٌ بضياع ، ولا يُؤخَذَ مالٌ بغير حق .

وأنه أراد أن يقيم أطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض :

حياة لاشِرْكَ فيها ولا وثنية ...

بل فيها التوحيد الخالص ، والعبادة لله الذى تعنُو له الوجوه.

حياة لاظلم فيها ولا استبداد .

بل فيها حق ، وعدالة ، وحرية ، وإخاء .

حياة لا جهل فيها ولا أمية .

بل فيها علم ومعرفة وحكمة .

حياة لا رفَثَ فيها ولا فسوق .

ولكن فيها طهارة ، ونظافة عَفَاف .

حياة لاحسد فيها ولا حقد .

بل فيها محبة ، وتعاون ، وتآزر وتناصر .

حياة لاسَرَفَ فيها ولا تَرَف .

بل فيها بَذْلٌ ، وكَرَمٌ ، وإيثار .

حياة لا خَمْر فيها ، ولا قمار .

بل فيها كدحٌ وَعَمَلٌ ، وَطَلَبٌ لما أَحَلَّ الله .

وأنه استهدف تهذيب الفرد ، وتعاون الجماعة ، وإيجادَ حُكمْ أساَسُه الشورى ؛ وغايَتُهُ حراسَةُ الدِّين ، وسياَسَة الدنيا ، وَجعل فى طليعة وظيفته الدعوة إلى هداية هذا الدين ؛ لِتَعُمَّ الأُخُوَّةُ الإنسانية مما يُعَجِّلْ بسلامٍ عام ، يعيشُ النَّاسُ فى ظِلِّه آمنين .

هذا هو الإسلام الذى يمكن أن نقدمه للناس فى عصر العلم والاكتشاف الذرى .

٧ — ضرورة تبنى الدولة لدعوة الإسلام :

وإن هذا الوقت لهو أنسب الأوقات للنهوض بهذه الرسالة السامية .

فقد اتجهت معظم الآراء فى أوروبا وأمريكا إلى وَجوب المناداة بالعودة إلى الدين؛ لأن التطور المادى الذى لم يصحبه سند من روح تطورٌ خَطِرٌ لاغاية له إلا الخراب والدمار ، وَلأن النفوس قد أفسدها الطمع ، والجشع ، والشره ، والأنانية ، وهم أحوج مايكونون إلى إصلاح هذه النفوس وعلاجها ، ليسود المجتمع المودة ، والرحمة ، والمعاونة ، والإيثار ، والسماحة ، والطيبة .

وهذه الفضائل لامَصْدَرَ لها إلا الدين والإيمان .

وليس من دينٍ سوى دين الإسلام ، يستطيع تقديم هذه الفضائل الإنسانية ، وليس هذا هو رأينا الخاص ، وإنما هو رأى علماء الغرب الذين درسوا الإسلام ، ووقفوا على حقائقه .

يقول جولد زيهر : ـ

« إنه إذا أردنا الإنصاف ينبغى أن نؤمن بأن فى منهج الإسلام قوة صالحة ، توجه الإنسان نحو الخير .

وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية ، حياة أخلاقية لاغبار عليها ذلك . .

أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله ، والوفاء بالعهود والمحبة. والإخلاص ، وكف غرائز الأنانية ، إلى هذه الفضائل التى أخذها الإسلام من الديانات التى اعترف لأصحابها بالرسالة .

«المسلم الصالح هو الذى يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية»

ولكى يتم هذا فى أقصر وقت وبأقل جهد ، لابد من أن تتبنى الدولة الاضطلاع بهذا المبدء ، أو تحتضنه أمة مخلصة ، فإن جهد الأفراد أضعف من أن يحتمل النهوض بهذا الأمر الكبير .

وعلى الدولة، أو الأمة التى تَتَبَنَّاهُ أن تتمثله عِلْماً وَعملاً ، وأن تكون صورة صادقة لمبادئه ، وتعاليمه ، كما جاء فى الكتاب والسُّنة .

وَبِعْرضِ الإسلام فى صورته الصحيحة وفى صورته العلميه التطبيقيه نكون قد أقمنا الدعوة الإسلاميه على أساس متين . بينما يكون علمنا وعملنا أقوى حجه ، وأوضح برهاناً ، فى الإقناع ، والاستدلال وإفحام من يَتَصَدَّى لنا من الخصوم المعارضين .

إن الإسلام قوى بنفسه؛ لأنه الحق ، ولكنه فى حاجه إلى رجال يوضحون حقائقه ، ويظهرون معالمه ، ويضحون من أجله .

وإن أى جهد يبذل من أجل الإسلام لهو خدمة للانسانية نفسها وهي أحوج ماتكون إليه .

وإن مئات الملايين من البشر الذين يؤمنون بالإسلام ويدينون به، والذين يشغلون حيزا كبيرا من أرض الله الواسعة ، ليحتاجون إلى من يزيدهم علماً بالإسلام ، وتبصرا به ، وهم من جانبهم مستعدون لأن يكونوا جنود هذا الدين ، وأنصاره المخلصين ، ولان يدخروا وسعاً فى إعزازه وتأييده ، ومناصرة كل من يمد يده إليهم .

إن صراع المبادىء اليوم على أشده ، وإنه بالغ غاية العنف .

وإن كل دولة تتخذ كل الوسائل الممكنة لها ، لترويج أفكارها والدعاية لمذاهبها، فتنشىء الوزارات، وتجهز الأجهزة، وتستغل الطاقات الفكرية، والأدبية ، والفنية ، لتأييد ما تراه، وإقناع الآخرين به .

وإذا كانت هذه الدول تنفق عن سعة ، وتبذل هذه الجهود، من أجل تأييد أفكارها البشرية ، القابلة للتغيير والتبديل ، فإن المسلمين أحق بالبذل وأولى بالتضحية، وأجدر بالتنظيم . لحماية الإسلام الحق ، والتبشير به، والدعاية له ، فى آفاق الدنيا الرحبة ، المتعطشة لهداية الله ، والفقيرة إلى منَ يرشدها إلى الحق وَ يُنِيرُ لها الطريق.

وإن هذا لهو جهاد الوقت، ولا يقل فى قيمته عن جهاد الحرب والقتال .

وَأَىُّ جُهْدٍ يبذل فى هذه السبيل لهو جُهْدٌ عظيم يباركه الله ، يثيبُ عليه أجزل مثوبة .

وقياماً بحق الله علينا ، ووفاء لهذا الدين الذي شرفنا اللهُ بالانتِسَابِ إليـه .

نتقدم بهذه الدراسات ، التي توضح بعض حقائق الإسلام في جوانبه الثلاثة :

الجانب الروحي ...
والجانب الخُلقِي ...
والجانب الاجتماعي ..

وهي دراسات إسلامية صميمة ، لم نعول فيها إلا على المصادر الأصيلة للاسلام ، ولم نشأ أن نُقحِمْ فيها أنفُسَنا ، أو نُؤَوِّلها تأويلاً يُخرِجُها عن مضمونها الصحيح .

وإنما أردنا أن نعرض الإسلام كما هو ؛ ليتبين مدى صلاحية هذا الدين ، وأنه الحق كلُّ الحقِّ ، الذي يَعلو ولا يُعلى عليه ، وأنه الروح والنور والهدى ..

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ[1] » .

---

(١) سورة الشورى آية ٥٣ .

الجانب الروحي

- أنظروا ماذا في السموات والأرض
- الايمان بضع وسبعون شعبة ..
- ومالنا ألا نتوكل على الله ....
- طوبى للمخلصين ...
- أحبوا الله لما يغذوكم به
- إذا أحب الله عبدًا .....
- لئن شكرتم لأزيدنكم
- إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا
- إنما يخشى الله من عباده العلماء
- لا تقنطوا من رحمة الله
- لا إله إلا أنا فاعبدون

انظروا ماذا في السموات والأرض

١ — التفكير هو الحياة :

إن ماينعم البشر به من حضارة راقية ، ومدنية زاهرة ، إنما هو نتاج عقل ذكى ملهم ، وثمرة تفكير عميق مشرق .

ولولا يقظة العقل ما اهتدت الإنسانية إلى قوانين الحياة ، وعلل الوجود ، وسنن الله فى الكون ، وما ارتقت خطوة واحدة ، ولبقيت على الحالة التى خلقت عليها دون أن تتغير أو تتطور .

ولكن العقل الذكى استطاع بمحاولاته المظفرة ، أن ينطلق من إساره ، ويحطم القيود التى فرضت عليه زمناً طويلا ، فأمكنه أن يستخرج من الأرض كنوزها ، ويتغلب على جَدْبها ، ويزيد فى إنتاجها ، ويقرب المسافات البعيدة ، ويخفف من الأدواء الفتاكة ، ويكتشف هذه المعلومات فى البر والبحر والجو ، والتى تبلغ بالحياة إلى مستوى رفيع ، ما كان أحد من أجدادنا ليحلم به .

إن لكل عضو وظيفة، ووظيفة العقل هى التأمل والنظر والتفكير ، وإذا تعطلت هذه القوى ، بطل عمل العقل ،وعطل من أهم وظائفه ، وتبع ذلك توقف نشاط الحياة ، مما يتسبب عنه الجمود والموت والفناء .

والإسلام أراد للعقل أن ينهض من عقاله ، ويفيق من سُباته ، فدعا إلى النظر والتفكير ، وعد ذلك من جوهر العبادة ، فقال الله سبحانه وتعالى :

« قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ[١] » .

---

(١) سورة يونس : آية ١٠١

وقال :

« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[(١)] » .

وأخرج ابن حبّان عن عليّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[لاعبادة كالتفكير] .

وعن ابن عباس وأبي الدرداء : [فكر ساعة خير من قيام ليلة] .

وقال السَّرى السَّقَطيّ : [فكرة ساعة خير من عبادة سنة] .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها :

[إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام ذات ليلة وتوضأ : ودخل فى الصلاة ، وبقى يصلى ويبكى حتى آذنه بلال بصلاة الصبح .

قالت : فقلت :

يارسول الله علام البكاء ، وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال ياعائشة :

أفلا أكون عبداً شكوراً .

ولم لا أفعل ، وقد أنزل الله علىَّ هذه الليلة :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[(٢)] » .

ثم قال :

[ويل لمن قرأها ولم يفكر فيها[(٣)]] .

---

(١) سورة سبأ : آية ٤٦ .

(٢) آل عمران : آية ١٩٠ ـ ١٩١

(٣) رواه ابن حبان .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[بينما رجل مستلق على فراشه ، إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم . فقال :

أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى .

فنظر الله إليه فغفر له[١]] .

والذين يجحدون نعمة العقل ولا يستعملونه فيما خلق من أجله ، ويغفلون عن آيات الله ، هم موضع الازدراء والتحقير . والله سبحانه يعتب عليهم فيقول:

« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[٢] » .

ويقول :

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[٣] » .

وتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان ، وهو الذى حال بين الأقدمين وبين النفوذ إلى الحقائق فى الآفاق وفى الأنفس .

يقول الله سبحانه :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا ولهم آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[٤] » .

---

(١) رواه الثعلبي وفى سنده من لا يعرف .
(٢) سورة يوسف : آية ١٠٥ .
(٣) يس : آية ٤٦ .
(٤) الأعراف : آية ١٧٩ .

٢ ــ التقليد حجاب التفكير :

والتقليد هو المانع للعقل من الانطلاق ، والمعوق له عن التفكير .

ومن ثم فالله يثني على الذين يخلصون للحقائق ، ويميزون بين الأشياء بعد البحث والتمحيص ، فيأخذون الأحسن ، ويدعون غيره ، يقول جل شأنه :

« فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١) » .

ويندد بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم ، ويجمدون على القديم المألوف ولو كان الجديد أهدى وأجدى لهم .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (٢) » .

« وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٣) » .

٣ ــ ميادين التفكير :

والإسلام حين دعا إلى التفكير ورحب به ، إنما أراد أن يكون ذلك فى دائرة نطاق العقل وحدود مداركه . فدعا إلى النظر فيما خلق الله من شىء ، فى السموات والأرض ، وفى الإنسان نفسه، وفى الجماعات البشرية ، ولم يحظر عليه إلا التفكير فى ذات الله ، لأن ذات الله فوق الإدراك .

---

(١) الزمر : آية ١٧ ــ ١٨ .
(٢) البقرة : آية ١٧١
(٣) الزخرف : آية ٢٣ .

« لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[١] » .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[٢] » .

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً[٣] » ،

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فإنكم لن تقدروه قدره[٤]] .

ومن الآيات الداعية إلى النظر والتفكير فى رحاب الكون الفسيحة ، قول الله سبحانه :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٥] » .

وقوله :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا

---

(١) الأنعام : آية ١٠٣ .

(٢) الشورى : آية ١١ . (٣) طه : آية ١١٠ .

(٤) رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف .
ورواه الأسفهانى فى « الترغيب والترهيب » بإسناد أصح منه .

(٥) البقرة : آية ١٦٤ .

مِن كلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا [(١)]».

«هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [(٢)]».

«وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [(٣)]».

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [(٤)]».

---

(١) ق : آيات ٦-٧-٨-٩-١٠-١١ .
(٢) يونس : آية ٥ .
(٣) الرعد : آية ٣-٤ .
(٤) فاطر : آية ٢٧ - ٢٨ .

وفى الدعوة إلى النظر فى الجماعة البشرية يقول الله سبحانه :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [١] » .

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [٢] » .

وفى الدعوة إلى النظر فى الانسان نفسه يقول الله سبحانه :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٣] » .

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ [٤] » .

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [٥] » .

وهكذا يمضى القرآن فى مئات الآيات ، يدعو إلى النظر فى مجالات الكون الفسيحة ، ليهتدى الإنسان إلى مبدع العالم وخالقه ، وليعرف حقائق الأشياء وخصائصها ، كى يتسنى له الانتفاع بما أودع فيها من قوى .

---

(١) الطارق : آيات ٥ ـ ٦ ـ ٧ .
(٢) الذاريات : ٢٠ ـ ٢١ .
(٣) الروم : آية ٩ .
(٤) النمل : آية ٦٩ .
(٥) آل عمران : آية ١٣٧ .

وتبدو عناية القرآن فى الدعوة إلى النظر فى الإنسان ومجتمعه، ليكشف عن صفاته ومميزاته كفرد، وعن السنن والقوانين التى تحكم مجتمعه، والتى لا يمكن معرفتها إلا بالبحث الدقيق، والنظر العميق، والملاحظة الواعية .

وكما يجب التفكير فى الآيات الكونية فإنه يجب التفكير فى آيات الله المتلوة وهى القرآن الكريم وليس من الميسور فهم أسراره وإدراك معانيه إلا بعد إعمال الفكر، وإمعان النظر .

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ[1] » .

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا[2] » .

ومن مزايا الإسلام أنه يوجب الاجتهاد فيما لا نص فيه من كتاب ولا سنة ويجعل القياس مصدراً من مصادر التشريع .

والاجتهاد يقتضى فهم الواقع فهماً دقيقاً، وإدراكه إدراكا واعياً، كما يقتضى الإحاطة بعلوم الشريعة وفقه أسرارها.

ولا يجيز الإسلام أن يخلو عصر من إمام مجتهد يبصر الناس بما يجد من قضايا تحتاج إلى معرفة حكم الله فيها . والمجتهد مأجور على كل حال . وإن لم يهتد إلى الحق، أو يصب حكم الله .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد].

إن آفاق التفكير فى الإسلام كما يبدو رحبة، وميادينه فسيحة، لا تحد بحد . ولا تقف عند نهاية .

---

(١) ص : آية ٢٩ . (٢) محمد : آية ٢٤ .

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ[١] » .

وما أوسع الدنيا .

وسعتها ليست بشيء فى جانب سعة الآخرة .

نتيجة الدعوة إلى التفكير :

كان من نتاج هذه الدعوة المباركة إلى التفكير ، أن أخذت العقول حريتها من النظر والتأمل، ونهض كل إمام من أئمة العلم والفكر يبحث ويدرس ويجتهد فى العقائد، والفقه ، والفلسفة ، وسائر العلوم ، والفنون ، دون أن يجد مايعوق نشاطه الفكرى ، واستقلاله العقلى ، فكان من ذلك كله هذه الحضارة التى نفخر بها نحن المسلمين ، والتى كانت هى الأساس التى قامت عليها نهضة أوربا ومدنيتها ، وشهد بذلك شاهد من أهلها .

قال الأستاذ « ليبيرى »

[لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون] .

---

(١) البقرة : اية ٢١٩ ، ٢٢٠ .

الإيمان بضع وسبعون شعبة

١ — ارتباط السلوك بالعقيدة :

سلوك الإنسان وتصرفاته فى الحياة ، مظاهر من مظاهر عقيدته .

فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام . وإذا فسدت فسد واعوجّ .

ومن ثَمَّ ، كانت عقيدة التوحيد ، والإيمان ، ضرورة ، لايستغنى عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ، ويحقق إنسانيته

ولقد كانت الدعوة إلى هذه العقيدة ، أول شىء قام به رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، لتكون حجر الزاوية فى بناء الأمة المسلمة .

ذلك ، أن رسوخ هذه العقيدة فى النفس الإنسانية ، يسمو بها عن الماديات الوضيعة ، ويوجهها دائماً وجهة الخير والنبل ، والنزاهة والشرف .

وإذا سيطرت هذه العقيدة أثمرت الفضائل الإنسانية العليا ، من الشجاعة والكرم ، والسماحة والطمأنينة ، والإيثار والتضحية .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[1] » .

فالايمان مثله مثل الشجرة المثمرة التى لاينقطع ثمرها ؛ فهى تؤتى أكلها

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٢٤ ، ٢٥ .

كل حين فى صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار ، والمؤمن كذلك،لايزال يرفع له عمل صالح ، فى كل وقت وحين .

يقول الفيلسوف ابن سينا :

العارف شجاع .

وكيف لا ؟ وهو بمعزل عن تقيَّة[1] الموت .

وجواد .

وكيف لا ؟ وهو بمعزل عن محبة الباطل .

وصفَّاحٌ .

وكيف لا ؟ ونفسه أكبر من أن تجرحها زَلَّة بشر .

ونسَّاء للأحقاد .

وكيف لا ؟ وفكره مشغول بالحق .

ولهذا كثر فى القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل الصالح، لأنه ثمرة من ثماره ، وأثر من آثاره .

٢ـ تناول الإيمان لجميع فروع الدين :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أطلق لفظ الإيمان على جميع فروع الدين فقال :

[الإيمان بضْع وستون شُعبة ، والحياء شُعْبة من الإيمان[2]] .

ورواية مسلم:[الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان] .

(١) لايتخذ الوقاية من الموت .

(٢) رواه البخارى ومسلم والبضع من ثلاثة إلى تسعة .

وهذه الفروع والشعب ، منها مايتعلق بالجنان[١] ، ومنها مايتعلق باللسان، ومنها مايتعلق بالأبدان .

فأما مايتعلق بالقلب،فهى المعتقدات والنيّات . . وتنتظم الخصال الآتيـة : الإيمان بالله ، وتوحيده ، وأنه ليس كمثله شيء ، واعتقاد حدوث مادونه .

والإيمان بملائكته ، وكتبه،ورسله .

والإيمان بالقَدر خيره وشره .

والايمان باليـوم الآخر . ويدخل فيه سؤال القبر ،والبعث ، والنشور والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة والنار .

ومحبة الله ، والحب والبغض فى الله.

ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد تعظيمه ، ويدخل فيه الصلاة عليه واتباع سنته .

والاخلاص لله ، وترك الرياء والنفاق . والتوبة ، والخوف والرجاء ، والشكر والوفاء ، والصبر والرضا بالقضاء ، والتوكل والرحمة ، والتواضع ، وتوقير الكبير ، ورحمة الصغير ، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد والحقد والغضب .

وأما ما يتعلق باللسان فهى هذه الخصال :

التلفظ بالشهادتين،وتلاوة القرآن ، وتعلّم العلم وتعليمه ، والدعاء ، والذكر، واجتناب اللغو.

وأما الخصال التى تتعلق بالأبدان فهى :

التطهر حسًا وحكما ، واجتناب النجاسات ، وستر العورة ، والصلاة فرضاً

---

(١) الجنان : القلب

ونفلا ، والزكاة ، والجود ، وإطعام الطعام ، وإكرام الضيف ، وتحرير العبيد ، والصيام فرضاً ونفلا. والحج والعُمرة ، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين ، والهجرة من دار الحرب ، والوفاء بالنذر ، والتحرى فى الأيمان، وأداء الكفارات .

والتعفف بالزواج ، والقيام بحقوق العيال ، وبر الوالدين ، واجتناب العقوق ، وتربية الأولاد، وصلة الرحم .

والقيام بالإمارة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولى الأمر، والإصلاح بين الناس ، وقتال الخوارج والبغاة ، والمعاونة على البر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود والجهاد والمرابطة فى سبيل الله ، وأداء الخمس من الغنيمة . والقرض مع وفائه . وإكرام الجار ، وحسن المعاملة ، وجمع المال من حلّه ، وإنفاقه فى حقه ، وترك التبذير والإسراف ، وردّ السلام وتشميت العاطس ، وكف الأذى عن الناس ، واجتناب اللهو ، وإماطة الأذى عن الطريق .

هذا هو الإيمان الحق وهو ينتظم العقائد، والعبادات، والأخلاق والآداب وسائر المعاملات ، وهذا ما اتفق عليه علماء السلف .

قال الإمام البخارى :

[لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف فى أن الإيمان : قول وعملٌ ، ويزيد وينقص](١) .

٣— أثر الإيمان فى الحياة :

والإيمان بهذا المعنى : هو الذى أراده الإسلام وهو الذى يهذب الحياة

---

(١) ص ٤٠ فتح البارى جزء أول.

ويرقيها ، ويصل بها إلى المدنية الحقة ، ويبلغها ما تنشده من الخير والتقدم وما تستهدفه من الحق والعدل .

وهو الايمان الذى ينعم به الفرد، وتسعد به الجماعة وتحيا فى ظله الحياة الطيبة.

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً[1] »

وفى ظلال العيشة الراضية ، تتوافر عناصر الارتقاء المادى والروحى ، ويجد الانسان من عناية الله وولايته وكرامته ما يبلغه ذروة الكمال الذى اراده الله له .

« اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[2] »

« وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[3] » .

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ[4] ».

وهذا الايمان هو الذى زكى نفوس المؤمنين الأولين ، وطهرها من الحسد والحقد ، والكبر والعجب ، والفسق والفحش ، والظلم والجور ، والقسوة والغلظة ، والأثرة والأنانية ، وهو الذى خلصهم من دَرَن التربية الفاسدة ، وَوَضر البيئة الرديئة ، وشر الوراثات السافلة .

وهو الذى أعلى هممهم ، فطابوا معالى الأمور ، ووطّنوا أنفسهم على إمامة البشر ، وقيادة الأمم، وتحريرها من الخرافات، واستبداد الملوك ، وتطهير الأرض من الكفر والفساد .

---

(١) النحل : آية ٩٧ .
(٢) البقرة : آية ٢٥٧ .
(٣) الحج : آية ٥٤ .
(٤) محمد : آية ١٧ .

هذا الايمان هو الذى مكّن لهم من الفتح والظفر ، والعلم والعمل وإقامة الحضارة التى شعَّ نورها ، وعمَّ خيرها مشارق الأرض ومغاربها ،فى سنين تعدّ على الأصابع .

قال الدكتور غوستاف لبون فى كتابه « تطور الأمم » :

إن مَلَكة الفنون لايتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال :

أولها : جيل التقليد .

ثانيها : جيل الخضرمة

ثالثها : جيل الاستقلال والاختصاص .

إلا العرب وحدهم . فقد استحكمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدءوا فيه بمزاولتها .

وما أصدق ما قاله النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مَجْدُنا وسَناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهرا

فقال له النبى صلوات الله وسلامه عليه :

ما المظهر يا أبا ليلى ؟

قال : الجنة .

قال : إن شاء الله . . . !

٤ـ الكفر مدمر للشخصية الإنسانية :

وإذا كان للايمان هذه الثمار الطيبة فى حياة الانسان وفى سلوكه، فإن الكفر على النقيض من ذلك .

فهو مصدر الشرور والمفاسد ، ومنبع الرذائل والنقائص ، بل هو المدمر لشخصية الانسان ، والمحطم لكيانه ، والقاضى على كل خصائصه ومميزاته ، كخليفة عن الله فى الأرض .

والقرآن الكريم ينعى على الكافرين و يندد بهم ، و يرسم لهم صورة كالحة منفرة ، تدعو إلى التحقير والاشمئزاز .

فهم فى نظره يحيون حياة الحيوان ، فليس لهم رسالة كريمة ، ولا غاية نبيلة ، ولا هدف سام ، وحياة الحيوان هذه لا تتجاوز المتاع والطعام .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ[١] » .

فهى إذن حياة لذة ، ولهو وشهوة . ليس فيها تفكير ولا تأمل ولا عمق .

« أفَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَوَاهُ وَأضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ[٢] » .

« وَقَالُوا مَاهِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ[٣] » .

« وَإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[٤] »

---

(١) سورة محمد : اية ١٢ .
(٢) الجاثية : اية ٢٣ .
(٣) الجاثية : اية ٢٤ .
(٤) الجاثية : اية ٢٥ .

وفى هذا الجو الحيوانى تغلق منافذ الإدراك، وتتعطل مواهب العقل والسمع والبصر، فلا ينفذ منها شعاع يضىء القلب الإنسانى، ويعمره بالحياة والايمان.

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١)».

ومتى أغلق القلب، وحيل بينه وبين النور الإلهى. اعترته الحيرة، وساورته الشكوك، ولزمه الضلال، والضيق، والضجر.

«فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ (٢)».

وهنا يكثر الجدل العقيم، لاطلباً للهداية، ولاتوسلا إلى الحقيقة، ولا اعتماداً على دليل، أو استناداً إلى حجة. أو استنارة بكتاب.

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٣)».

وعندما ينقطع الدليل وتبطل الحجة، يكون الحقد على الأديان، والغيظ من حملتها، والتبرم بهم، والضيق منهم.

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ

---

(١) الأعراف: آية ١٧٩.　(٢) الأنعام: آية ١٢٥.　(٣) الحج: آية ٨، ٩.

أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمْ ٱلنَّارُ . وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ(١) ».

ثم يتبع ذلك الاستهزاء بالرسل، وتحقير تعاليمهم ، والاستخفاف بأتباعهم والضحك منهم .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٢)» .

ومن الطبيعي أنهم بعد ذلك ينفرون من الدعوة والداعية، فلا تصغى إليه أفئدتهم، ولا تسمع له آذانهم .

« وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٣)».

« وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤) » .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد .

بل يطلقون ألسنتهم بالكذب ، وينقضون العهد ، ويزوِّرون الحقائق ، ويموِّهون على الناس .

« إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (٥) » .

---

(١) سورة الحج آية ٧٦ . (٢) سورة المطففين : الآيات . ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢ .
(٣) سورة نوح : آية ٧ (٤) سورة الزمر اية ٤٥ (٥) سورة النحل اية ١٠٥

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ(١) » .

ويقدمون اللهو والضلال ليصرفوا الناس عن الهدى والرشاد .

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(٢) » .

وهم لايلتفتون إلى الحق مهما ظهرت أدلته ووضحت معالمه .

« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٣) » .

بل يصل بهم الأمر إلى حدّ القتال فى سبيل الشيطان، ومن أجل الباطل .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا(٤) » .

إن الكفر هو الشجرة الخبيثة التى تثمر المرّ والشر ، وإن على الهداة المخلصين للحياة ، والمحبين لها ، أن يخلّصوا الإنسانية من مآثم الكفر وضلال الجحود والإلحاد .

---

(١) سورة الأنفال : ٥٦ اية ٥٥ .
(٢) سورة لقمان : اية ٦ .
(٣) سورة يونس : ٩٦ ، ٩٧ .
(٤) سورة النساء : ٧٦

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ[1] » .

---

(١) سورة إبراهيم : اية ٢٦ - ٢٧ .

طوبى للمخلصين

١ — معنى الإخلاص :

الإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله، وعمله وجهاده، وجه الله، وابتغاء مرضاته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو مظهر، أو تقدم، أو تأخر، ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، ورذائل الأخلاق، ويتصل مباشرة بالله.

٢ — دعوة الإسلام إليه :

وقد دعا الإسلام إليه ورغب فيه، فقال :

« قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[1] » .

وأمر الله به، فقال :

« وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ[2] ».

وجعل قبول الأعمال رهناً به ووقفاً عليه .

[روى ابن أبي حاتم ، عن طاووس ، أن رجلا قال :

يارسول الله . . .

إني أقف المواقف، أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ؟ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتى نزلت هذه الآية :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[3] » .

---

(١) الأنعام: اية ١٦٢، ١٣٦. (٢) البينة : اية ٥ . (٣) الكهف : اية ١١٠

والإخلاص دليل كمال الإيمان .

روى أبو داود، والترمذى، بسند حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

[من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان] .

والله سبحانه ينظر إلى القلوب، لا إلى المظاهر والأشكال .

فعن أبى هريرة ، أن الرسول قال :

[إن الله لاينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم[1]]

وعن أبى موسى الأشعرى ، قال:

[سئل الرسول عليه السلام . . .

الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أى ذلك فى سبيل الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام :

[من قاتل لتكونَ كلمةُ اللهِ هى العليا فهو فى سبيل الله[2]].

أى قاتل من أجل إعلاء الحق ورفع رايته .

٣ — متى يكون العمل خيراً ؟

والعمل لايعتد به ، ولا يعتبر خيراً إلا إذا كان عن نية طيبة، خالصة لوجه الله ، لأن العمل حينئذ يناط بغاية واحدة ، ومثل أعلى هو الله..

والله لايأمر إلا بالخير، ولا يحب إلا الخير، فتكون وجهة الإنسان فى الحياة وجهة الخير لنفسه ، وللناس جميعاً .

فعن عمر رضى الله عنه ، قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

[إنما الأعمالُ بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله[3] ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ماهاجر إليه[4]] .

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه البخارى ومسلم . (٣) أى فهجرته مقبولة .

(٤) فلا يثاب عليها ولا يظهر بدرجة المهاجرين . رواه البخارى ومسلم.

٤ — قيمة الإخلاص :

والإخلاص، والنية الطيبة، تبلغ بالإنسان الذروة من السمو والرفعة، وتنزله منازل الأبرار .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[طوبى للمخلصين :

الذين إذا حضروا لم يعرفوا .. وإذا غابوا لم يفتقدوا ..

أولئك هم مصابيح الهدى، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء[١] ..]

والإخلاص نجاة لما يتعرض له المرء من محن .

عن أبى عبد الرحمن ، عبد الله بن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[انطلق ثلاثة نفر[٢] ممن كان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غار، فدخلوه .

فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا :

إنه لاينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

قال رجل منهم :

اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنت لاأَغْبُق قبلهما أهلا ولا مالا[٣] فنأى[٤] بى طلب الشجر يوماً . فلم أُرُحْ[٥] عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غَبُوقَهما[٦]، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما، وأنْ أغْبُق قبلهما أهلا أو مالا .

فلبثت والقدح على يدى ، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، والصبية

---

(١) رواه البيهقى عن ثوبان .   (٢) النفر : من ثلاثة إلى عشرة .
(٣) لا أقدم عليهم فى شرب اللبن أهلا ولا غير أهل .   (٤) نأى : بعد .
(٥) لم أرح : أرجع إليهما .   (٦) الغبوق : ما يشرب بالعشى .

يتضاغَوْن[١] عند قدمى ، فاستيقظا فشربا غَبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .

فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر :

اللهم إنه كانت لى ابنة عم ، كانت أَحب الناس إلىّ ، وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها[٢] ، فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة[٣] من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها . ففعلت .. حتى إذا قدرت عليها قالت .

اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه[٤].

فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها .

اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا مانحن فيه .

فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث :

اللهم إنى استأجرت أجراء، وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت[٥] أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال:

ياعبد الله أدّ إلى أجرى . فقلت :

كل ماترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال :

ياعبد الله . لا تستهزىء بى . فقلت :

لا أستهزىء بك .

فأخذه كله ، فاستاقه ، فلم يترك منه شيئاً .

---

(١) يصيحون من الجوع . (٢) راودتها . (٣) نزل بها عام قحط .
(٤) أى إلا بعقد شرعى . (٥) ثمرت : نميت .

اللهم: إن كنت فعلت ذلك، إبتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون [1]] :

والإتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد ، النجاح والظفر ، والجماعة التى تتألف من أفراد مخلصين ، تتجه إلى الخير ، وتتنزه عن الدنايا ، وتترفع عن شهوات الدنيا، وتسير إلى غاياتها، تظللها المحبة ويعمها الأمن والسلام.

ولقد كان التحلى بحلية الإخلاص سبباً فى تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق، والكذب، فاندفعوا إلى غاياتهم الكبرى، ينشدون إقامة الحق والعدل ويبتغون وجه الله ، وإعلاء كلمته .

فمكن الله لهم فى الأرض ، وجعلهم قادة الدنيا ، وسادة العالم .

والأعذار التى تحول بين الإنسان وبين ممارسة الأعمال الصالحة، لا تنقص من مكانته عند الله ما دام مخلصاً .

فعن جابر بن عبد الله ، قال :

كنا مع النبى، صلى الله عليه وسلم، فى غزوة تبوك، فقال:

[إن بالمدينة لرجالا، ما سرتم سيراً ، ولا قطعتم ، وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض .

وفى رواية: إلا شركوكم فى الأجر[٢]].

وعن عائشة رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

[ما من امرىء تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم ، إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه عليه صدقة »[٢]] .

وعن سهل بن حنيف ، أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال :

[من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه] .

٥ — الرياء ونية السوء :

وكما أن الاتصاف بالإخلاص والنية الطيبة تصل بالإنسان إلى المنزلة الرفيعة

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه أبو داود والترمذى .

فالاتصاف بالرياء، ونية السوء تهبط به إلى أسفل الدركات، لأن الباعث على العمل ـ وهو العنصر الأخلاقى ـ هو موضع نظر الرب سبحانه .

فعن أبى بَكْرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

[إذا التقى المسلمان بسيفهما ، فالقاتل والمقتول فى النار].

قلت يارسول الله :

هذا القاتل فما بال المقتول ؟

قال :

[إنه كان حريصاً على قتل صاحبه [١]] .

فحرص المقتول على قتل صاحبه ، أورده النار .

والله سبحانه يحاسب على ماأبداه الإنسان أو أخفاه .

« وإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ »[٢].

وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا المعنى فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال:

[إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة

وإن هم بها فعملها، كتبها الله عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة [٣] .

وإن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة[٤]، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة[٥]].

والرياء من شأنه أن يحجب المرء عن الله، وينزل به إلى مستوى الحيوان ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) سورة البقرة آية : ٢٨٤ (٣) المضاعفة حسب إخلاص المرء . (٤) إذا كان قد تركها خوفا من الله وإيماناً به ؛ أما إذا تركها لعجز عن مباشرتها فلا شىء له من الحسنات بل إذا صمم على الفعل ولم يتمكن منه بسبب خارج عن إرادته فهو يؤاخذ بنيته . كما فى حديث أبى بكرة . وهذا خاص بالهم .

أما إذا لم يبلغ الأمر درجة الهم بل بقى حديث نفس ، فإن الله يتجاوز عنه فى الحديث الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها » .

(٥) رواه البخارى ومسلم عن عبدالله بن عباس .

فلا تزكو له نفس ، ولا يقبل منه عمل ، ذلك أن المرائى لا رأى له . ولا مبدا ولا عقيدة ، ولـكنه كالحرباء ، يتلون بكل لون ، ويميل مع كل ريح .

والرياء معناه :

طلب المنزلة والجاه بالعبادات .

والله سبحانه نهى عنه وحذر منه ؛ لماله من آثار سيئة فى النفس وفى المجتمع فقال :

« وَالذينَ يَمكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ[(١)] ».

والذين يمكرون السيئات هم أهل الرياء .

وهو صفة من صفات المنافقين ، الذين لا يثبتون على مبدأ ، ولا يتقيدون بعقيدة صالحة .

يقول الله سبحانه :

« إنَّ المُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ ، وَإذا قامُوا إلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالَى يُراءونَ النّاسَ وَلا يَذكُرُونَ اللهَ إلاّ قَليلاً[(٢)] ».

وهذا الخداع سيكشفه الله ، ويهتك ستره ، ويفضح المرائى المخادع ، جزاء ريائه وخداعه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ن سَمَّع سَمَّع الله به[(٣)]، ومن يرائى يرائى الله به[(٤)]] .

---

(١) فاطر : آية ١٠ . (٢) النساء : آية ١٤٢ .

(٣) سمع : أظهر عمله للناس رياء . سمع الله به ـ فضحه .

(٤) يرائى : يظهر عمله الصالح للناس ليعظم عندهم ، وليس هو كذلك . يرائى الله به : يظهر سريرته على رءوس الخلائق .

والرياء نوع من الشرك المحبط للعمل .

فعن محمود بن لبيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

[إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر] .

قالوا :

وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟

قال : الرياء .

يقول الله يوم القيامة : إذا جزى الناس بأعمالهم : يقول :

اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا. فانظروا، هل تجدون عندهم جزاء؟]

والإسلام يريد للإسلان أن يكون سره كإعلانه ، وظلمةليله كضوء نهاره.

فإذا اختلف الظاهر والباطن ، وتعارض القول والفعل ، وتأرجح الإنسان بين دوافع الخير ونوازع الشر. كان النفاق الذى يفقد المرء شخصيته ، فلا يقدر على الجهر بالحق ، ولا يقوى على المصارحة ، ولا يقف موقف البطل الشجاع

روى البخارى عن ابن عمر، رضى الله عنهما ، أن ناساً قالوا له :

إنا ندخل على سلاطيننا، فنقول لهم بخلاف مانتكلم ، إذا خرجنامن عندهم.

قال ابن عمر :

[كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

وإن من يتتبع الآثار السيئة للرياء، والنفاق، فى المجتمع البشرى ، وفى الحياة الإنسانية ، ومدى ما أحدثاه من فساد فى الخلق ، واضطراب فى النظم ، وتغيير للعرف الصالح ، وتعويق عن النهوض والارتقاء ، ليدرك بسهولة معنى ماروه مسلم عن أبى هريرة أنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

[إن أول الناس يُقْضَى(١) يوم القيامةعليه، رجل اسْتُشْهِدَ(٢) فأتى به،فعرفه نعمته، فعرفها(٣) قال:

---

(١) يقضى . يحكم . (٢) قتل فى المعركة .

(٣) أتى به بين يدى الله . فرد عليه نعمه فاعترف بها .

فما عملت فيها ؟

قال :

قاتلت فيك(١) حتى استشهدت .

قال :

كذبت (٢) ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء (٣) ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار] .

٦ — الإعجاب بثناء الناس لا ينافى الإخلاص :

وإذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم اطلع عليه الناس دون قصد منه ، وأعجبه ثناؤهم عليه ، وحمدهم له ، فهذا لايحبط العمل ، ولا ينافى الإخلاص .

روى الترمذى عن أبى هريرة ، أن رجلا قال :

يارسول الله . الرجل يعمل العمل فَيُسِرُّه(٤) ، فإذا اطُّلِع عليه أعجبه ذلك؟

(١) أى من أجل دينك وفى سبيل مرضاتك .

(٢) أسند إليه الكذب لمخالفة ظاهر العمل للقصد والنية ، فإن ظاهره لله . وباطنه مرآة الناس .

(٣) جرىء : شجاع .

(٤) يخفيه على الناس لاخلاصه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية] .

بل قد يكون ثناء الناس من البشريات المعجلة ،

فعن أبي ذر، رضى الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

« أرأيت (١) الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه ؟

قال : [تلك عاجل بشرى المؤمن (٢)] .

٧ — إتقاء الرياء :

عن أبي موسى الأشعرى قال :

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال:

[يا أيها الناس : اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل .

فقال رجل : وكيف نتقيه ؟

قال: قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه (٣)] .

---

(١) أى أخبرنى . (٢) رواه مسلم . (٣) رواه أحمد .

ومالنا ألا نتوكل على الله

معناه :

١ — التوكل على الله هو الثقة به ، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به فى كل شأن ، والإيقان بأن قضاءه نافذ ، — والسعى فيما لابد منه من مطعم ، وملبس ، ومسكن ، والتحرز من العدو ، كما فعله الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

والتوكل محله القلب

قال القشيرى :

وأما الحركة فى الظاهر فلا تنافى توكل القلب، بعد ماتحقق العبد، أن التقدير من فعل الله عز وجل ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن تيسر شىء فبتيسيره .

ضرورته :

٢ — والإنسان وهو فى صراعه مع الحياة تنتابه المخاوف، وتعتريه الصعاب، وتنزل به الآلام النفسية ، فلا يجد للحياة طعما ، ولا يستطيع مع هذا القلق أن يقوم بدوره الرئيسى فى إسعاد نفسه ونفع غيره ، فتتعطل قواه المادية والأدبية ، ويصبح شيئاً تافهاً لاقيمة له ولا غناء فيه .

والحياة لاتطيب للإنسان، ولا يسعد بها، ولا يستطيع أن يقوم بدوره الكامل فيها ، إلا إذا استمتع بسكينة النفس، وطمأنينة القلب. وراحة البال، وعافية البدن.

وسبيل ذلك أن يثق بالله، ويحسن الظن به، ويتوكل عليه، ويرد أمره كله إليه.

ففى الحديث القدسى :

[أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى] .

ومن ثم كان التوكل على الله ضرورة ، لا يستغنى عنها العالم ، ولا العامل،

ولا الرجل ولا المرأة ، ولا الحاكم ، ولا المحكوم . ولا الصغير ، ولا الكبير .
لحاجة هؤلاء جميعاً إلى يد قوية حانية ، تعينهم إذا أقدموا من جانب ، وتمسح
آلامهم إذا أخفقوا من جانب آخر .

الدعوة إليه :

٣ — وإن الناظر فى الإسلام يرى دعوته صريحة فى الاتصاف بهذه الصفة
والتحلى بها .

فالله سبحانه يأمر بالتوكل عليه فيقول :

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ[١] » .

والتوكل ثمرة من ثمرات الإيمان :

« وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[٢] ».

والمتوكلون على الله يكفيهم كل ما أهمهم من أمر الدين والدنيا :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[٣] » .

أى كافيه .

والتوكل منهج الرسل جميعاً، إليه يلجأون، وبه يلوذون ـ فالقرآن يحكى أنهم
كانوا دائماً يقولون :

« وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ على اللهِ وَقَدْ هَدَانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ على
مَا آذَيْتُمُونَا وَعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[٤] » .

والمسلمون بعد غزوة أحد، حين هددوا بتجمع الأعداء، وقيل لهم: إن المشركين
قد اجتمعوا للقضاء عليكم، لم يبالوا بذلك معتمدين على الله ومفوضين الأمر له .

---

(١) الفرقان : آية ٥٨ . (٢) إبراهيم : آية ١١ .
(٣) الطلاق : آية ١٣ . (٤) إبراهيم : ١١٢ .

فصرف الله عنهم العدو ، وسجل لهم هذا الموقف القوى الرائع ، فقال :

« يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [(١)] » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن حسن الظن بالله من عبادة الله[(٢)]] .

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

[يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير] .

قيل معناه : أنهم متوكلون .

وعن عمر رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا[(٣)]] .

أى أن الطير تصبح جائعة ضامرة البطون ، ليس فى حوصلتها شىء من الطعام ، وترجع آخر النهار وقد امتلأت بطونها من رزق الله .

---

(١) آل عمران الآيات ١٧١ — ١٧٢ — ١٧٣ — ١٧٤ .
(٢) رواه أبو داود والترمذى والحاكم .
(٣) رواه الترمذى .

و إبراهيم عليه السلام كان آخر قوله حين ألقى فى النار :
[حَسْبِي اللهُ و نعم الوكيلُ] فأنجاه الله من النار ، وجعلها برداً وسلاماً عليه.

وقال جابر :

[كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرِّقاع[1] .
فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله معلق بالشجرة، فاخترطه (أى سله)
فقال : تخافنى ؟

فقال : لا .

قال : فمن يمنعك منى ؟

قال : الله .

فسقط السيف من يده ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم السيف فقال :
من يمنعك منى ؟
فقال : كن خير آخذ .
فقال: تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله.
قال : لا ، ولكنى أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك .
فخلى الرسول سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس] .
وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل التوكل شعاراً للمؤمن، فأرشد إلى أدعية يدعو بها فى الصباح ، وفى المساء ، وحين يخرج من بيته ، أو يأوى إلى فراشه ، لما فى هذه الأدعية من إيقاظ القلب ، وتوجيه النفس إلى الله فى كل حال .
فعن أم سلمة رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان إذا خرج من بيته ، قال :

---

(١) اسم لغزوة من الغزوات .

[باسم الله. توكلت على الله . اللهم إنى أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَل ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ ، أو أَظلِمَ ، أو أُظْلَمَ ، أو أَجهَلَ أو يُجهَلَ عليّ] [١] .

وعن أنس رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

[من قال – يعنى إذا خرج من بيته – باسم الله، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة بالله ، يقال له :

هُديت ، وكُفيت ، ووُقيت ، وتنحى عنك الشيطان [٢]] .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[من قال فى كل يوم – حين يصبح ويمسى – : « حَسْبِيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم » سبع مرات كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة] .

وعن طلق بن حبيب، قال جاء إلى أبى الدرداء ، فقال :

يا أبا الدرداء . قد احترق بيتك .

فقال ما احترق ، لم يكن الله عز وجل ، ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

من قالها أولَ نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسى ، ومن قالها آخرَ النهار لم تصبه مصيبةٌ حتى يصبح :

[اللهمَّ أنتَ ربى لا إله إلا أنتَ عليك توكلتُ وأنتَ رب العرش العظيم . ما شاء اللهُ كان وما لم يَشأْ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى : وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه أبو داود والنسائى والترمذى . وقال حديث حسن . وزاد أبو داود فيقول [يعنى الشيطان] لشيطان آخر . كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى . . ؟

أعلم أن على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما .

اللهم إنى أعوذ بك من شرِّ نفسى، ومن شر كل دَابَّة أنت آخذ بناصيتها.

إن ربى على صراط مستقيم] .

وفى بعض الروايات أنه قال :

انهضوا بنا .

فقام وقاموا معه ، فانتهوا إلى داره وقد احترق ماحولها ، ولم يصبها شىء .

ووصّى رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء فقال :

[إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقِّك الأيمن وقل:

اللهم أسلمتُ نفسى إليك .

ووجَّهتُ وَجْهى إليك . .

وفوَّضْتُ أمرى إليك . .

وألجأتُ ظهرى إليك .

رَغْبَةً وَرَهْبَةً إليك . .

لامَلْجَأَ ولا مَنْجَى مِنْك إلا إليك

آمنتُ بكتابِك الذى أنزلتَ .

ونبيِّك الذى أرسلتَ .

ثم قال : فإن مت متَّ على الفطْرَة، واجعلهن آخر ما تقول] .

٤ — التوكل والأسباب :

والتوكل على الله لا ينافى اتخاذ الأسباب . بل إن التوكل لايصح إلا إذ اتخذ الإنسان لكل عمل يريده، جميع الأسباب الموصلة إلى تحقيقه، فالله سبحانه قد ربط المسببات بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها .

والإنسان مسوق إلى الأخذ بالأسباب بمقتضى فطرته وبمقتضى تكليف الله له . . . وإهمال هذه الأسباب مناف للفطرة ، ومخالف لأمر الله .

« فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١) » .

« خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً (٢) » .

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ (٣) » .

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى (٤) » .

وقال تعالى مخاطباً « لوطا عليه السلام » لينجو بأهله .

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ (٥) » .

وقال لموسى عليه السلام فى مثل هذا الموقف .

« فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٦) » .

وقال فى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وتحذير أبيه له منهم .

« يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً (٧) » .

وقال :

« يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ (٨) » .

وفى العلاج والتداوى يأمر الدين بالأخذ بأسبابهما ويحض عليهما .

يقول صلى الله عليه وسلم :

[أيها الناس تداووا . إن الله ما وضع داء إلا جعل له شفاء] .

---

(١) سورة الملك آية : ١٠
(٢) سورة النساء آية : ٧١
(٣) سورة الأنفال آية : ٦٠
(٤) سورة البقرة آية : ١٩٧
(٥) سورة هود آية : ٨١
(٦) سورة الدخان آية ٢٣
(٧) سورة يوسف آية : ٥
(٨) سورة يوسف آية ٦٧

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يأخذ لكل أمر عدّته، ويستعد لملاقاة أعدائه الاستعداد الكامل، ويتخذ جميع أسباب النصر، وكان يعمل ويسعى للكسب، ويأمر غيره بالسعى والكدح، وما كان يترك السبب الذى جعله الله موصلا إلى الغاية؛ إذ أن ترك السبب مجافاة النظام الذى وضعه الله للحياة، وما كانت مجافاة نظام الحياة موصلة إلى شيء.

وقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يترك ناقته على باب المسجد دون أن يعلقها[1] فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اعلقها وتوكل[2].

فالتوكل لا يتحقق إلا باتخاذ الأسباب، ومتابعة سنن الله وقوانينه أولا، ثم الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه وترك النتائج له ثانياً.

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ[3] ».

وقد رأى عمر رضى الله عنه قوماً، توهموا أن التوكل هو ترك مباشرة الأسباب، فأعرضوا عن العمل، وركنوا إلى العجز والكسل، فقال لهم: ما أنتم؟ فقالوا: متوكلون. قال: كذبتم: ما أنتم متوكلون.

إنما التوكل: رجل ألقى حبه فى الأرض، ثم توكل على الله[4].

ومثل من ترك العمل راجياً أن يحصل على ما يريد، كمن يريد أن يطير فى الجو بلا جناح، أو يريد الولد بلا زواج، أو يريد تحريك الآلات بلا وقود، وإنبات النبات دون تعهد.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليبس

(١) يربطها حتى لا تفلت. (٢) رواه الترمذى من حديث أنس والطبرانى والبيهقى من حديث عمرو بن أبيه الضمرى وأن عمرو نفسه وهو القائل.
(٣) سورة هود آية: ١٢٣.
(٤) رواه الحاكم وابن أبى الدنيا والعسكرى والدينورى عن معاوية بن قرة.

أحبوا الله لما يغذوكم به

١ — أعلى أنواع الحب ومنشؤه :

الحب عاطفة كريمة ، وشعور راق نبيل .

وأعلى أنواعه محبة الله .

وإنما تنشأ هذه المحبة ، بإثارة القوى العقلية والروحية ، وعمق النظر في ملكوت السموات والأرض ، وحسن التدبر لآيات القرآن ، وكثرة ذكر الله ، واستحضار أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

ومتى رسخت هذه المحبة وعمقت جذورها ، كان الله هو الغاية ، وآثره المرء على كل شيء ، وضحى من أجله بكل شيء ، لأنه يجد من حلاوة الإيمان ، ولذة اليقين ، وحسن الصلة بالله ما تصغر ، بل تحقر جميع اللذائذ في جانبها .

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما .

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله

وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار] .

وهذا من علامة صحة النفس ، وسلامة القلب . فإنه لا كمال للإنسان إلا بمعرفة جمال الله وجلاله ، واستشعار بره وإحسانه ، ورؤية آلائه ونعمائه ، وشهود رحمته وحكمته .

ومتى كان ثمة شيء أحب إلى النفس ، وآثر لديها من الزلفى إلى الله ، وطلب القرب منه ، فهي ما زالت مريضة وما زال الإيمان ناقصاً .

يقول الله سبحانه :

« قُلْ إن كانَ آباؤُكُمْ وَأبناؤُكُمْ وَإخوانُكمْ وَأزواجُكمْ وَعَشِيرَتُكمْ وأمْوالٌ اقترَفْتُمُوهاَ[١] وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهاَ وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَهاَ أحَبَّ إلَيْكمُ مِّنَ اللهِ ورَسُولِهِ وَجِهادٍ فى سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يأتِىَ اللهُ بِأمْرِهِ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الفاسِقِينَ[٢] » .

والله سبحانه وتعالى أثبت هذه المحبة للمؤمنين فقال :

« والَّذينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ[٣] ».

وقال : « فَسَوْفَ يأتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[٤] » .

وحبب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحب فقال :

[أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله إياى][٥] .

وكان يضرع إلى الله ويسأله أن يهبه هذا الحب .

فما حفظ من دعائه :

[أسألك حبَّك ، وحبَّ من يحبك ، وحبَّ عمل يقربنى إلى حبك][٦] .

٣ — الصحابة يحبون الله أكثر من أنفسهم :

وقد أيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الجذوة وأشعلها فى قلوب أصحابه فأحبوا الله أكثر من أنفسهم ، وآبائهم ، وأمهاتهم ، ومن الماء البارد على الظمأ ، ورضوا أن يبذلوا نفوسهم ومهجهم وهم فرحون مستبشرون :

---

(١) اكتسبتموها وحصلتموها . (٢) سورة التوبة آية ٢٤ .

(٣) أى أن المؤمنين أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها ويعظمونها من دون الله . سورة البقرة آية ١٦٥ . (٤) المائدة آية ٥٤ .

(٥) رواه الترمذى من حديث ابن عباس وقال : حسن غريب .

(٦) رواه الترمذى بسند صحيح .

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١) ».

ولما لم يشهد أنس بن النضر ، يوم بدر ، شق ذلك عليه وقال :

أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه .

لئن أرانى الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيَرَيَنَّ الله عز وجل ، ما أصنع .

فشهد مع رسول الله يوم أُحد، فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس :

يا أبا عمرو أين ؟ ؟

واهاً لريح الجنة إنى أجده دون أُحد .

ثم قاتل حتى قتل ، ووجد فى جسده بضع وثمانون : بين ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم ولم تعرفه إلا أخته . عرفته ببنانه .

وفيه وفى أصحابه نزلت هذه الآية الكريمة:

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢) »

ولما هم المسلمون بفتح فارس ، وكانت موقعة القادسية فى السنة السادسة عشرة ، حضرت الخنساء وأوصت بنيها الأربعة فقالت :

« يابنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين .

---

(١) التوبة : آية ١١١.　　　(٢) سورة الأحزاب آية ٢٣ .

والله الذى لا إله إلا هو. إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة..
ما هجّنت[1] حسبكم، ولا غيرت نسبكم.

واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا، ورابطوا
واتقوا الله لعلكم تفلحون.

فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أرواقها، فتيمموا
وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة.

فلما أضاء الصبح، باكروا إلى مراكزهم.

فتقدموا واحداً بعد واحد، ينشدون أراجيز، يذكرون فيها وصية أمهم لهم
حتى استُشهدوا جميعاً.

فلما بلغها الخبر قالت:

الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته.

ومحبة الله هى التى حملت مصعب بن عمير على ترك ما كان ينعم به من طيب
العيش إلى الشظف والحرمان.

قال عمر:

نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير، وعليه إهاب كبش
قد تمنطق به، فقال:

[انظروا إلى هذا الرجل الذى نوّر الله قلبه.

لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله
ورسوله إلى ما ترون].

٣ — مظاهر محبة الله

ومحبة الله تقتضى محبة القرآن الكريم، ومحبة الشريعة السمحة، ومناصرة
دين الله الذى لا صلاح للناس إلا به.

---

(١) تريد: أنها عفيفة طاهرة.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] .

ويقول عثمان رضى الله عنه :

« لو سلمت منا القلوب ما شبعت من كلام الله عز وجل . وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمرى فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

ومن مظاهر حب الله محبة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، إذ أنه حامل الوحى ، ومبلغ الرسالة ، وقائد الخلق إلى الحق ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض .

فعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده والناس أجمعين[1]] .

وروى أيضاً عن عبدالله بن هشام قال :

كنا مع ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله يا رسول الله أنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى .

فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

[لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه].

فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى .

فقال رسول الله: الآن يا عمر[2] .

(١) رواه البخارى .

(٢) يعنى الآن تم إيمانك

وقد قتل أبو امرأة من الأنصار ، وأخوها ، وزوجها ، يوم أحد فأخبروها بذلك . فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : هو كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظره . فلما رأته قالت:

كل مصيبة بعدك صغيرة .

ولما أخرج أهل مكة، زيد بن الدَّثِنة ـ وكانوا قد أسروه ـ ليقتلوه . قال له أبو سفيان :

أنشدك الله[1] يازيد، أتحب أن محمدا الآن مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

فقال زيد:

والله ما أحب أن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني لجالس في أهلي.!

فقال أبو سفيان :

ما رأيت أحدا من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

ومحبة الصالحين، والتودد إليهم من محبة الله ، إذ أنهم أنصاره وجنوده .

فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[أفضل الأعمال الحب في الله ، والبغض في الله] .

وعن أبي أمامة أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان] .

وحب الأبرار الأتقياء يبلغ بالمرء أكرم المنازل .

فعن أنس، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم، متى الساعة ؟

قال : وما أعددتَ لها ؟

قال : لا شيء ، إلا أني أحب الله ورسوله.

قال:

أنت مع من أحببت.

---

(١) أي سألتك به .

قال أنس :

فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت .

ثم قال :

فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم .

٤ — حب الله وحب الأهل والولد :

وهذا الحب الإلهي لا يتنافى مع محبة الزوجة، والولد ، والأهل ، والعشيرة ، مادامت هذه المحبة تابعة له، وغير مانعة له من النمو والسمو والوصول إلى الكمال.

فمحبة الزوجة والولد والعشيرة فطرية ولصيقة بقلب الإنسان وعاطفته .

وهى محمودة إلا إذا صرفت الإنسان عن المثل الأعلى، وعوقته عن النهوض لخدمة دينه ونفع وطنه .

فحينئذ يضحى بها من أجل الوصول إلى المثل الأعلى ، وخدمة الدين ، ونفع الوطن .

والتضحية على هذا النحو هى أروع أنواع البطولة وأحقها بالإجلال والإكبار.

وهذا هو هدى الإسلام الكريم وأسلوبه الحكيم، إذ أنه لا يغمط الفطرة حقها فهو يقيم العلاقة الزوجية على أساس من المودة المشتركة بين الزوجين، والتى يظهر أثرها فى التعاون والتعامل ، وفى أسرة كل منهما .

« وَمِنْ ءايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (١) » .

ويجعل الإسلام الولد من رياحين الله :

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وهو محتضن أحد ابنى ابنته وهو يقول :

---

(١) سورة الروم آية ٢١ .

[إنكم لتبخِّلون وتجبِّنون وتجهِّلون وإنكم لمن ريحان الله[1]]

وعن عائشة قالت :

جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

أتقبلون الصبيان . فما نقبلهم ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

[أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة[2]] .

وهكذا يساير الإسلام الفطر ، ويعطى كل ذى حق حقه ، ويفتح القلب الإنسانى لحب الله الذى لا حياة له به .

فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به
شهيداً وإلا فالغرام له أهل

وهذا هو الحب الذى سعد به المحبون ، وشغلوا به عن كل ما سواه .

قالت رابعة :

أحبــك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهــل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمــد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

---

(١) رواه الترمذى عن خولة بنت حكيم .
أى أن الأولاد يسببون لآبائهم البخل والجبن والجهل بإيثارهم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

إذا أحبَّ الله عَبدًا

١ - الظفر بمحبة الله أسمى الغايات :

من أسمى الغايات، وأنبل الأغراض التي يستهدفها المرء في حياته، الظفر بمحبة الله ، وتحصيل بره ورضاه .

والله سبحانه إذا أحب إنساناً وفقه للصالحات ، وأعانه على السمو إلى أقصى الغايات، وأمده بالنصر الذى يعلى من شأنه ، ويرفع من قدره، وحفظه من كل سوء يصيبه، أو أذى يناله .

٢ - الطريق إلى محبة الله :

وللظفر بمحبة الله منهج مرسوم ، وطريق معلوم .

وفى طليعة هذا المنهج متابعة رسول الله ، وحسن الاقتداء به ، والتأسى به فى أقواله وأفعاله ، والتخلق بأخلاقه وآدابه ، فذلك أهدى السبل ، وأقرب الطرق ، وآية كمال الإيمان وصدق اليقين .

يقول الله تعالى :

« قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) » .

والقيام بشرائع الإسلام وشعائره ، والاضطلاع بفرائضه ونوافله ، واحتمال أعبائه وتبعاته هى الركائز الأساسية لمن يحاول القرب من الله .

فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

[إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب .

---

(١) آل عمران ٣١ .

وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه .
وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أُحبه .
فإذا أحببتُه .
كنت سمعه الذى يسمع به . . .
وبصره الذى يبصر به . . .
ويده التى يبطش بها . . .
ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه[1]]
وأحباء الله هم خلفاؤه الذين يتخلقون بأخلاقه ، فيعرفون لكل شىء حقه ،
ويضعون كل أمر موضعه .
فهم سلم ورحمة للمؤمنين . .
وهم قسوة وغلظة على الكافرين . .
وهم دائماً متأهبون لإعلاء كلمة الله . .
يناصرون الحق لا يبالون أوقعوا على الموت ، أو وقع الموت عليهم .

« فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ على الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ على الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ[2] » .

ونظافة البدن والثوب والقلب والعقل ، والسلوك والخلق . توصل إلى الله مباشرة.

---

(١) رواه البخارى . ومعنى آذنته أعلمته بأنى محارب له . وقوله : استعاذنى روى بالباء وروى بالنون .
(٢) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(١) » .

والنجاسة: نجاسة البدن، والثوب، والقلب، والعقل، تحجب عن الله وتقطع الصلة دونه .

« إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ(٢) » .

« وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(٣) » .

والله نظيف يحب النظافة ، قوى يحب الشجاع، سخى يحب الأسخياء، غيور يحب الغيور .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود(٤)] .

والاعتراف بنعمة الله وحمده والثناء عليه عمل صالح .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها](٥) .

ويقول :

[رأس الشكر الحمد لله]

ويقول :

[إن الله يحب أن يحمد(٦)] .

وفى النهوض بالأعمال الكبرى، والفضائل الإنسانية التى يعم خيرها، ويعظم أثرها، ميدان فسيح للمتنافسين فى الخيرات .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٣
(٢) سورة التوبة آية ٢٨ .
(٣) سورة يونس آية ١٠٠
(٤) رواه الترمذى بسند حسن عن سعد .
(٥) رواه مسلم عن أنس .
(٦) رواه الطبرانى .

فالصبر والثبات، والمثابرة ، والجهاد، والجلاد ، والحق، والعدل ، والتوكل والتقوى، وغير ذلك من الصفات ـ كل ذلك فيه للتنافس فى الخير والبر ـ مجال .

ولنتأمل آيات الله فى ذلك :

« وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(1) ».

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ(2) » .

« وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(3) » .

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

« وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(4) » .

« بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(5) » .

وفى السنة الكثير من هذه الخلال الطيبة، التى ترقى بالفرد، وتنهض بالجماعة إلى أقصى درجات الكمال ، فيقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه(6)] .

[إن الله يحب إغاثة اللهفان(7)] .

أى إعانة المكروب ونصرته.

[« إن الله يحب الرفق فى الأمر كله(8)] .

---

(1) آل عمران آية ١٤٦ .
(2) الصف آية ٤ .
(3) الحجرات آية ٩ .
(4) البقرة آية ١٩٥ .
(5) آل عمران آية ٧٦ .
(6) رواه أبو يعلى وابن عساكر عن عائشة .
(7) رواة أبو يعلى والديلمى عن أنس وابن عساكر عن أبى هريرة .
(8) رواه البخارى ومسلم عن عائشة .

أى أن الله يحب لين الجانب فى القول والفعل ، والأخذ بالأسهل فى أمر الدين والدنيا ، وفى معاشرة الناس ولا سيما الأقرباء .

[إن الله يحب السهل الطليق(١)] .

أى السهل فى قوله وفعله .

والطليق المتهلل الوجه البسام .

[إن الله يحب الشاب التائب(٢)] .

[إن الله يحب الشاب الذى يفنى شبابه فى طاعة الله(٣)]

[إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى(٤)] .

[إن الله يحب العبد المؤمن المحترف(٥)] .

[إن الله يحب الملحِّين فى الدعاء(٦)] .

[إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه(٧)] .

الرخصة تسهيل الحكم على المكلف بسبب عذر حاصل .

[إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده(٨)] .

[إن الله يحب من عباده الغيور(٩)] .

والغيور كثير الغيرة .

ومن الغيرة غيرة يحبها الله ، وهى ما كان بسبب قيام ريبة

ومنها مذمومة يكرهها الله وهى ما كانت بسبب سوء الظن دون ريبة .

[إن الله يحب سمح البيع ، سمح الشراء ، سمح القضاء(١٠)] .

[إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال(١١)]

---

(١) رواه البيهقى والشيرازى والديلمى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أبو الشيخ عن أنس بسند ضعيف .

(٣) رواه أبو نعيم .

(٤) رواه مسلم عن سعيد بن أبى وقاص .

(٥) رواه الطبرانى والبيهقى بسند ضعيف عن ابن عمر وله شواهد .

(٦) رواه الطبرانى والبيهقى عن عائشة .

(٧) البيهقى والطبرانى عن ابن عمر .

(٨) الترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٩) أبو داود الطيالسى عن على بن أبى طالب.

(١٠) أبو هريرة وصححه الحاكم .

(١١) عن عمران بن الحصين وله شواهد .

[إمرأة ولود ، أحب إلى الله تعالى من امرأة حسناء لاتلد ، إنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة[١]] .

[إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ، ويكره سَفْسَافَها[٢]] .

[إن الله يحب أن يحمد[٣]] .

[إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى فى القبل[٤]] .

[إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتباؤس[٥] » .

[إن الله جميل يحب الجمال ، جواد يحب الجود ، ويحب معالى الأخلاق ، ويكره سفسافها[٦]] .

[المؤمن القوى خيروأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير[٧]] .

[ماتحاب رجلان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه[٨]] .

[إن الله عَفُوٌّ يحب العفو[٩]] .

[أحب الأعمال إلى الله أدومها و إن قل[١٠]] .

[وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، والمتجالسين فىّ ، والمتزاورين فىّ ، والمتباذلين فىّ[١١]] .

أى الذين يبذلون أنفسهم فى مرضاة الله .

[بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ « قل هو الله أحد » فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله فقال:

---

(١) ابن قانع فى معجم الصحابة .
(٢) رواه الطبرانى عن الحسن بن على .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) « ابن النجار عن النعمان بن بشير .
(٥) « البيهقى عن أبى سعيد .
(٦) « البيهقى عن طلحة بن عبيد الله .
(٧) « مسلم .
(٨) « الطبرانى وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وقال : صحيح الإسناد .
(٩) « ابن عدى عن عبد الله بن جعفر .
(١٠) « البخارى ومسلم .
(١١) رواه مالك عن أبى إدريس الخولانى .

سلوه لأى شيء يصنع ذلك فسألوه؟ فقال: لأنها صفة الرحمن . فأنا أحب أن أقرأ بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أخبروه أن الله يحبه(١)].

[إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده(٢)] .

[إن إن أحب عباد الله إلى الله من حبب إليه المعروف وحبب إليه فِعَالُه(٣)]

[إن أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه إمام جائر(٤)] .

[إن أحب أسمائكم إلىّ الله تعالى عبد الله ، وعبد الرحمن(٥)] .

[إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون .

وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون] . المتفيهقون ـ المتكبرون(٦) .

[أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة(٧)] .

[أحب الأعمال إلى الله : الصلاة لوقتها ، ثم برّ الوالدين ، ثم الجهاد فى سبيل الله(٨)].

[أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله(٩)] .

[أحب الأعمال إلى الله من أطعم مسكيناً من جوع ، أو دفع عنه مغرماً أو كشف عنه كربا(١٠)] .

[أحب الأعمال إلى الله — بعد أداء الفرائض — إدخال السرور على المسلم(١١)] .

[أحب الأعمال إلى الله حفظ اللسان(١٢)] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه عبدالله بن الإمام أحمد عن الحسن مرسلا.
(٣) « ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ .
(٤) « أحمد والترمذى .
(٥) « مسلم .
(٦) « الترمذى .
(٧) « أحمد .
(٨) « أحمد .
(٩) « الطبرانى والبيهقى .
(١٠) « الطبرانى .
(١١) « الطبرانى .
(١٢) « البيهقى .

[أحب الأعمال إلى الله ، الحب فى الله والبغض فى الله[١]] .
[أحب الأسماء إلى الله ما تُعُبِّد له ، وأصدق الأسماء همام وحارث[٢]] .
[أحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها[٣]] .
[أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تقال لإمام جائر[٤]] .
[أحب الحديث إلىَّ أصدقه[٥]] .
[أحب الكلام إلى الله تعالى أربع :
سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لايضرك بأيهن بدأت[٦]] .
[أحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمى[٧]] .
[أحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله[٨]] .
[أحب عباد إلى الله أحسنهم خلقاً[٩]] .
[أحب بيوتكم إلى الله بيت فيه يتيم مكرم[١٠]] .
[ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فى مافى أيدى الناس يحبك الناس[١١]]

٣ — السيئات الصارفة عن محبة الله :

وإذا كانت هذه الخصال تستوجب محبة الله ، فإن ثمة خصالا أخرى هى موضع غضب الله وسخطه ، إذ أنها منابع الشر ، وجذور الجريمة ، وهى التى تلحق بالفرد والجماعة أضراراً بالغة الخطورة ، ففى الآيات الكريمة يقول الله سبحانه :

« لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ[١٢] » .

---

(١) رواه أحمد عن أبى ذر
(٢) رواه الطبرانى عن ابن مسعود
(٣) رواه أحمد عن جبير
(٤) رواه أحمد عن أبى أمامة
(٥) رواه أحمد عن المسور
(٦) رواه أحمد عن سمرة
(٧) « ابن عدى عن ابن عمر
(٨) من مراسيل الحسن
(٩) رواه الطبرانى
(١٠) رواه البيهقى
(١١) رواه الطبرانى والبيهقى
(١٢) النساء آية ١٤٨

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[١] » .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ[٢] » .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[٣] » .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[٤] » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا[٥] » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا[٦] » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ[٧] » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[٨] » .

« إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ[٩] » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ[١٠] » .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ[١١] » .

« إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ[١٢] » .

وفى الأحاديث يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[إن الله يبغض المعبِّس فى وجوه إخوانه[١٣]] .

---

(١) البقرة آية ١٩٠
(٢) البقرة آية ٢٧٦
(٣) آل عمران آية ٥٧
(٤) آل عمران آية ٣٢
(٥) النساء آية ٣٦
(٦) النساء آية ١٠٧
(٧) الأنفال آية ٥٨
(٨) القصص آية ٧٧
(٩) النحل آية ٢٣
(١٠) القصص آية ٧٦
(١١) البقرة آية ٢٠٥
(١٢) الأعراف آية ٣١
(١٣) رواه الديلمى

[إن الله يبغض الفاحس المتفحش[1]] .
[إن الله يبغض الوَسِخَ والشَّعِث[2]] .
[إن الله يبغض البذخين الفرحين[3]] .
[إن الله يبغض الغنى الظلوم ، والشيخ الجهول ، والعائل المختال[4]]
[إن الله يبغض الطلاق[5]] .
[إن الله يبغض السائل الملحف[6]] .

٤ — من ثمار محبة الله :

ومن ثمار محبة الله للانسان، أن يُلقى الله فى قلوب الصالحين من عباده ، محبته
قيل يارسول الله إنا نعمل العمل لله ويحبنا الناس فقال :

[تلك عاجل بشرى المؤمن] .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

[إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال :

إنى أحب فلانا فأحبه . فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول :

إن الله يحب فلاناً فأحبوه،فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض.

وإذا أبغض عبداً ، دعا جبريل، فيقول :

إنى أبغض فلاناً فأبغضه . فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أبغض فلاناً فأبغضوه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض[7]] .

---

(١) رواه أحمد
(٢) رواه البيهقى
(٣) رواه الديلمى
(٤) رواه الطبرانى
(٥) رواه الديلمى
(٦) رواه أبو نعيم
(٧) رواه مسلم

لئن شكرتم لأزيدنكم

معنى الشكر :

١ — شكر الله سبحانه يتجلى فى شهوده فى نعمه ، ومعرفته فى آلائه ، كما يتجلى فى حبه ، وحمده والثناء عليه .

ولا يتحقق الشكر إلا إذا صرف المرء النعمة التى وهبها الله له فيما ينفع نفسه وينفع غيره من الناس.

فالصحة ، والمال، والجاه، كلها نعم من الله ، لاتصان إلا بصرفها فيما ينفع، دون أن يبدد الإنسان شيئاً منها فيما لاطائل تحته ، ولا فائدة فيه .

كثرة النعم :

٢ — ونعم الله المستوجبة للشكر، والجديرة بالثناء والحمد، كثيرة لاحصر لها: فمنها نعمة الوجود، والخلق، والإمداد بوسائل الإدراك والمعرفة ، من السمع والبصر والعقل .

يقول الله سبحانه :

« وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١) .

ومنهما نعمة الغذاء ، الذى به قوام بدن الإنسان .

يقول الله تعالى:

« وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهاَ وَأَخْرَجْنَا مِنْهاَ حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلونَ وَجَعَلْنَا فِيهاَ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيهاَ مِنَ الْعُيُونِ * لِيأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ »(٢) .

(١) سورة النحل آية ٧٨

(٢) سورة يس آيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥

ويقول :

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[1] ».

ونعمة الماء، والهواء، والليل، والنهار، كلها من جلائل نعم الله. يقول الله سبحانه:

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[2] ».

ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[3].

ويقول :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ

---

(١) سورة يس آيات ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) سورة الفرقان آية ٦٢.

بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[(١)] »

ولو ذهبنا نتقصى نعم الله الظاهرة والباطنة لطال بنا الحديث ، وإن العقل ليعجز عن وصف نعمة من نعمه والإحاطة بها ، فضلا عن الإحاطة بأنعم الله وآلائه كلها .

وصدق الله العظيم .

« وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ[(٢)] » .

ثمرة الشكر :

٣ — وشكر الله سبحانه نوع من الاعتراف بالجميل، وأداء الحق لمستحقه، وهو آكد الواجبات ، لأنه سبحانه هو المفيض بجلائل النعم ، وشكره عليها استدامة لها واستزادة منها .

يقول الله تعالى :

« لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ[(٣)] »

ولهذا كان الشكر دافعاً للبلاء ، ومانعاً للعذاب . يقول الله سبحانه :

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا[(٤)] ».

والله سبحانه غنى عن الناس ، فهو لا ينتفع بشكر من شكر ، ولا يتضرر بكفر من كفر ، وإنما تعود فائدة الشكر ومنفعته على الإنسان الشاكر .

يقول الله تعالى :

« وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ[(٥)] » .

---

(١) القصص الآيات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٢) النحل آية ١٨ .
(٣) سورة إبراهيم آية ٧.
(٤) النساء آية ١٤٧.
(٥) النمل آية ٤٠ .

والشكر يطهر نفس الشاكر، ويقربه من ربه، ويوجهه إلى بذل النعم وإنفاقها في وجوهها النافعة، مما تعود فائدته على الأفراد والجماعات.

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: أسق حديقة فلان.

فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرّة[1].

فإذا شرجة[2] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله.

فتتبع الماء.

فإذا رجل قائم في حديقته، يحول الماء بمسحاته[3].

فقال له: ياعبد الله؟

ما اسمك؟

قال: فلان: للاسم الذى سمع في السحابة.

فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟

فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذى هنا ماؤه، يقول: أسق حديقة فلان لاسمك. فما تصنع فيها؟

فقال: أما إذا قلت هذا. فإني أنظر إلى مايخرج منها.

فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه[4]].

عاقبة الجحود:

٤ — والجحود، ونكران الجميل شر مايبتلى به الإنسان، فهو يجعل المرء غير مبال بأنعم الله، ولا مهتم بماوهبه من أفضال، فيبددها في غير طائل ولا منفعة، فتحول النعمة إلى نقمة، والمنحة إلى محنة، وتذهب الصحة والثروة، وتضيع آلاء الله عبثاً.

---

(١) الحرة: الأرض الصلبة.
(٢) الشرجة: مسيل الماء.
(٣) المسحاة: الفأس.
(٤) رواه مسلم.

ومن ثم كانت عاقبة الجحود والنكران، السوآى والعذاب المدمر.
يقول الله تعالى:

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ[١] ».

ولقد ذكر الله لنا قصتي سبأ، وأصحاب الجنة، لتكونا مشهداً، معروضاً أمام أنظار الناس فيستخلصوا منهما العبرة، والموعظة الحسنة.
ففي قصة سبأ يقول الله سبحانه:

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ: عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[٢] ».

وفى قصة أصحاب الجنة:

---

(١) سورة النحل آية ١١١، ١١٢.　(٢) سورة سبأ آية ١٤ — ١٩.

يقول الله تعالى :

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ[1] » .

وفى قصة الأبرص ، والأقرع ، والأعمى ، التى رواها أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبلغ الدرس .

فقد روى أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام :

[إن ثلاثة من بنى إسرائيل . .

أبرص ، وأقرع ، وأعمى ،

أراد الله أن يبتليهم . .

فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص ، فقال :

أى شيء أحب إليك ؟

قال :

---

(١) سورة القلم آية ١٧ – ٣٢ .

لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قَذَرَنِي الناس .
فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطى لوناً حسناً، وجلداً وحسناً .

فقال :

فأي المال أحب إليك ؟
قال : الإبل أو قال البقر — شك من الراوي..
فأعطي ناقة عُشَراء[1] .
فقال : بارك الله لك فيها .
فأتى الأقرع، فقال :
أي شيء أحب إليك ؟
قال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس .
فمسحه فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسناً .
قال : فأي المال أحب إليك ؟
قال : البقر .
فأعطي بقرة حاملا ، قال : بارك الله لك فيها .
فأتى الأعمى فقال :
أي شيء أحب إليك ؟
قال : أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس.
فمسحه فرد الله إليه بصره .
قال : فأي المال أحب إليك؟
قال : الغنم .

---

(١) الناقة العشراء : أي الحامل .

فأعطى شاة والدا ، فَأُنْتِجَ هذان ، وولد هذا[1] .

فكان لهذا واد من الإبل .

ولهذا واد من البقر .

ولهذا واد من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته .

فقال له : رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بى الحبال فى سفرى[2] ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن، والمال ، بعيراً أتبلغ به فى سفرى .

فقال : الحقوق كثيرة .

فقال له: كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص، يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟

فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر .

فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد هذا.

فقال : إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته . فقال له: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك، وأعطاك المال. شاة أتبلغ بها فى سفرى .

فقال : قد كنتُ أعمى فرد الله إلى بصرى، فخذ ما شئت ، فوالله لا أجهدك[3] اليوم بشىء أخذته لله عز وجل.

فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضى الله عنك، وسخط على صاحبيك]

رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أنتج : تولى نتاجها والناتج للناقة كالقابلة للمرأة : والد : تولى ولادتها

(٢) انقطعت بى الحبال : أى انقطعت بى الأسباب

(٣) أجهدك لا أشق عليك فى رد شىء تأخذه أو تطلبه من مالى

إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا

١ — معنى التقوى :

إذا تمكن الإيمان من القلب ، ورسخت جذوره فى أعماق النفس ، أثمر حالةمن الحالات التى تفجر الطاقات الكامنة ، والقوى التى وهبها الله للانسان ، فينبعث إلى الخير انبعاث المحب ، وينصرف عن الشر انصراف الكاره ، ويكون شأنه كما وصف الله سبحانه :

« وَلَكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[1] ».

وهذه الحالة تسمى بالتقوى :

٢ ـ تضمنها أصول الإسلام :

والتقوى تتضمن أصول الإسلام وقواعد الدين

يقول الله سبحانه :

« ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[2] » .

---

(١) سورة الحجرات آية ٧ ، ٨ (٢) سورة البقرة الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

وتنتظم أعمال البر ، يقول الله سبحانه :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[1] » .

ويقول :

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ[2] » .

ويقول :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ[3] »

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) آل عمران الآيات ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٣) الذاريات الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

والعدل من التقوى ، يقول الله سبحانه :

« اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى[١] » .

والعفو عن الناس من التقوى ، يقول :

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى[٢] »

والوفاء بالعهد من التقوى ، يقول الله سبحانه .

« بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[٣] » .

وهكذا نجد التقوى فى كتاب الله تتناول العقائد ، والعبادات ، والآداب وسائر الأعمال الصالحة .

وأنه لايتصف بها إلا من امتحن الله قلوبهم للتقوى ، وأعدهم لقيام بمواريث النبوة ، وأعباء الرسالة ، وهيأهم للعبودية الحقة ، والجندية التى لاتخاف فى الله لومة لائم .

وهذه المنزلة لايصل إليها إلا من راض نفسه بترك الشهوات والشبهات ، وجاهدها فى ذات الله ، حتى تذوق حلاوة الإيمان ، وطعم اليقين .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به، حذراً مما به بأس[٤]]

٣ — الدعوة إليها :

ولما كانت التقوى جماع كل بر ، ومصدر كل خير ، وأصل كل صلاح للأفراد والجماعات ، كانت خير مايتزود به الانسان ، يقول الله سبحانه :

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى[٥] » .

---

(١) المائدة آية ٨ .
(٢) البقرة آية ٢٣٧ .
(٣) آل عمران آية ٧٦.
(٤) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.
(٥) البقرة آية ١٩٧ .

وكانت أحسن مظهر يظهر به المرء ، يقول الله سبحانه .

« وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ[(١)] » .

وكان صاحبها أقرب إلى الله منزلة وأعلى شأنا ، يقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ[(٢)] » .

وكانت هى الوصف الذى اختاره الله لخواص عباده ، وكانوا أحق بأن يبسط عليهم من بركاته وخيراته ، يقول الله سبحانه :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ[(٣)] » .

والأتقياء هم الذين يفيض الله عليهم من نوره ، فيدركون به الحق ، ويبصرون الصواب ، ويميزون بين ما يجب فعله من الخير وما يجب تركه من الشر ، يقول الله سبحانه :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[(٤)] » .

ومن ثم لم يكن للشيطان على قلوبهم من سبيل فلا يصابون بحيرة ، ولا يتعرضون للشكوك والريب ، وإذا أصابهم منها شىء فسرعان ما تبددها أضواء الحق واليقين ، يقول الله سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[(٥)] » .

وهم أولياء الله وأحباؤه ، يكلؤهم برعايته ، ويحييهم فى عافيته ، ويحفظهم من السوء : ويجنبهم أحزان الماضى ، وآلام المستقبل .

---

(١) الأعراف آية ٢٦ .
(٢) الحجرات آية ١٣ .
(٣) الأعراف آية ٩٦ .
(٤) الأنفال آية ٢٩ .
(٥) الأعراف آية ٢٠١ .

يقول الله سبحانه :

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[1] » .

وهم دائما موضع نظر الله سبحانه :

« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ[2] » .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ[3] »

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا[4] » .

٤ — لا تقوى إلا بفقه وإرادة :

وتقوى الله سبحانه لا تتم إلا بأمرين:

أولا فقه فى دين الله ، ومعرفة مافيه من سمو وحكمة .

ثانياً : قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ، لحمل النفس على الاضطلاع بالتبعات والتكاليف .

فبالمعرفة من جانب ، والإرادة القوية من جانب آخر ، يستطيع المرء أن يبصر الطريق ، ويسير على الجادة ، دون تعثر أو انحراف .

وقد أشار القرآن إلى هذين الأمرين فى معرض الثناء على بعض الأنبياء، فقال :

« وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ[5] » .

فأولو الأيدى: أصحاب القوة.

وهم كذلك أصحاب فقه فى الدين وبصر به.

---

(١) يونس الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤. (٢) النحل آية ١٢٨ .

(٣) الطلاق الآيتان ٢ ، ٣ . (٤) سورة الطلاق آية ٤ . (٥) سورة ص آية : ٤٥ .

إنما يخشى الله من عباده العلماء

١ — دعوة الإسلام إلى الخوف من الله :

دعا الإسلام إلى الخوف من الله ، وأثنى على الخائفين .

يقول الله سبحانه :

« فاللهُ أحَقُّ أنْ تَخشَوْهُ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ[1] » .

ويقول : « وَإيَّايَ فَارْهَبُونِ[2] » .

ويقول : « وَخَافُونِ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ[3] » .

ويقول : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ[4] » .

وقال تعالى : « وأقْبَلَ بَعضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قَالُوا إنا كُنَّا قَبلُ فِي أهْلِنا مُشفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا ووقانا عَذابَ السَّمُومِ * إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إنَّهُ هُوَ الْبرُّ الرَّحِيمُ[5] » .

[وروى الإمام أحمد والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت :

قلت يارسول الله : قول الله تعالى :

« إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * والَّذِينَ هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * والَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشرِكُونَ * والَّذِين يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وجِلَةٌ أنَّهمْ إلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[6] » .

---

(١) التوبة آية ١٣ (٢) البقرة آية ٤٠

(٣) آل عمران بقآ ١٧٥ . (٤) آل عمران آية ٣٠

(٥) الطور الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) المؤمنون الآيات ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

أهو الذى يزنى ، ويشرب الخمر ، ويسرق ؟

قال :

لا يا ابنة الصديق .

ولكنه الرجل يصوم ، ويصلى ، ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبلَ منه] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إنى أرى مالا ترون .

أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط[١] .

ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى .

والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً .

وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش .

ولخرجتم إلى الصُّعُدَات تجأرون إلى الله تعالى[٢]] .

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم :

(من خاف أدلج ومن أدلج[٤] ، بلغ المنزل .

ألا إن سلعة الله غالية .

ألا إن سلعة الله الجنة[٥]] .

وروى الترمذى بسند حسن ، عن أبى أمامة الباهلى : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[ليس شىء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تُهرَاق فى سبيل الله .

وأما الأثران : فأثر فى سبيل الله ، وأثر فى فريضة من فرائض الله] .

---

(١) الأطيط : صوت الرحل ونحوه أى أن كثرة من فى السماء من الملائكة قد أثقلتها حتى أطت.
(٢) الصعدات : الطرقات (٣) رواه الترمذى وحسنه .
(٤) الإدلاج السير ليلا والمراد الجد فى الطاعة (٥) رواه الترمذى بسند حسن

باعث الخوف :

والخوف إما أن يكون خوفاً من معرفة جلال الله ، واستشعار عظمته وكبريائه وهو خوف العارفين .

وكلما كانت المعرفة أتم ، كان الإنسان أشد لله خوفا ، وأعظم خشية .

« إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ[1] » .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية] .

وفى رواية : خوفا .

وكان يصلى ، ولقلبه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[2] .

وإما أن يكون سببه ما اقترفه الإنسان من آثام ، وارتكب من سيئات ، فهو يخشى أن يؤاخذه الله بما اكتسبه منها.

٣ — آثاره :

وإنما رغّب الإسلام فى الخوف من الله ، ودعا إليه ؛ لما له من آثار طيبة ، وثمار حسنة فى حياة الفرد والجماعة .

فهو يبعث فى الإنسان روح الشجاعة ، ويدفعه إلى الجهر بالحق ، وإنكار المنكر ، دون تهيب من أحد ، أو خوف من مخلوق .

وهذا من أعظم الفضائل وأكرم الغايات .

وما دام هناك فى الأمة من يجهر بالحق ، ويدعو إليه ، ويعمل على نشره ، فإن الباطل سوف يتوارى كما تتوارى ظلمات الليل عند طلوع الفجر الصادق .

وهذه إحدى البينات التى يتميز بها أنصار الله وحملة رسالته ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة .

---

(١) فاطر آية ٢٨ .

(٢) رواه الترمذى وأبو داود بسند صحيح ، والأزيز صوت البكاء .

« ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا[1] » .

والخائفون من الله ، هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

يقول الله سبحانه :

« فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ[2] » .

ويقول :

« إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ[3] »

« إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ[4] » .

ومن آثار الخوف من الله كذلك ، أنه يمنع الإنسان من الاسترسال فى المعاصى والآثام ، ويجنبه الوقوع فى الفسوق ، ويحجزه عن محارم الله .

فإن الإنسان إذا خاف من الله : كف لسانه عن الهُجْر والكذب ، والغيبة والنميمة ، والسخرية ، والهمز ، واللمز ، . . وامتنعت العين عن النظرة الخائنة ، وطهر القلب من الغل والحسد ، والفسق والكبر ، والرياء والنفاق ، وسائر الصفات الذميمة ، التى يبغضها الله ويمقتها الإسلام .

ولولا الخوف من الله لاندفع الانسان إلى الشر ، وانكب على اللذائذ غير مراع مصلحة غيره ، ولا مقيم لها أى وزن .

٤ — عدم كفاية القوانين :

وقد يقال :

إن القوانين يمكن أن تحل محل الخوف من الله .

---

(١) الأحزاب آية ٣٩ .
(٢) سورة الأعلى آية ٩
(٣) فاطر آية ١٨ .
(٤) سورة يس آية ١١

والحق ...

أن القوانين ـ مهما كانت صارمة ـ فإنها لا تنفع كما ينفع الخوف والخشية من الله ـ فإن الخوف يخلق الضمير الحى، الذى يصحب الإنسان فى الخلوة وفى الجلوة . وفى كل حال ...

بينما القوانين لا تراعَى إلا حيث يخاف الإنسان من الوقوع فى قبضة السلطة القائمة على تنفيذ القانون .

فإذا وجدت فرصة ، أمن فيها المرء على نفسه ، هتك حرمة القانون ، وخرج عليه دون مبالاة .

وإن ما تعانيه الإنسانية ،من نضوب معين الفضائل ، وفساد الضمائر ، وانتشار الجرائم ، والاستهتار بالقيم ؛ إنما سببه الغفلة عن خوف الله ، وعدم استحضار عظمته فى القلب .

ولهذا كثر فى القرآن الدعوة إلى الخوف من الله ،ليستيقظ الضمير، ويصمد، وفى يقظة الضمير نجاة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة .

ولا تقتصر ثمار الخوف من الله وخشيته على هذا ، بل يدفع الخوف إلى السلوك الايجابى الذى يسمو بالنفس إلى كل خير

ولهذا سجل الله المغفرة للخائفين ؟ وجعل لهم الأجر الكبير ، فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[1] » .

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[2] » .

« وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[3] » .

---

(١) سورة الملك آية ١٢ . (٢) سورة النازعات الآيتان ٤٠ ، ٤١ .
(٣) النور آية ٥٢ .

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ[١] » .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[٢] » .

٥ — الخوف من الناس :

وإذا كان الخوف من الله ممدوحا، فلماله من هذه النتائج الحسنة والثمار اليانعة.

أما الخوف من الناس ، فإنه مما يذمه الإسلام ويحظره ؛ لأن من شأنه أن يمنع الانسان من الجهر بالحق ، ويحول بينه وبين أن يغير للنكر ، ويجعل من الفرد إنسانا متملقا تافها ، لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره .

ولولا شجاعة الدعاة ، وجرأة المصلحين ، وثباتهم إزاء ما يلقونه من أذى واضطهاد — لما قام للحق قائمة ، ولما تطورت الحياة ، ولما وصلت الإنسانية إلى ما وصلت إليه من تقدم ورقى .

٦ — علاج الجبن :

عالج الإسلام هذه الناحية ـ ناحية الخوف من الناس ـ فى نفس الإنسان ، ليخلصه من الجبن والضعف ، ويجعل منه شخصية قوية ـ لا تضعف أمام الناس ، ولا تنثنى إزاء الصعاب ، فبين له أن الناس بشر مثله . لايملكون الحياة لأنها منحة من الله . وهو يسلبها إذا شاء ، وحين يحل الأجل الموقوت .

يقول الله تعالى :

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا[٣] » .

---

(١) الرحمن آية ٤٦ (٢) البينة الآيتان ٧ ، ٨

(٣) آل عمران آية ١٤٥

فأى نفس لا يأتيها الموت إلا بمشيئة الله وقدره ـ فالإقدام لا ينقص العمر، والإحجام لا يزيده . . .

وقد فطن الشاعر إلى هذا المعنى وهو يقول :

أىَّ يَوْمَىَّ مِنَ الْمَوْتِ أفِرّْ
يَوْمَ لاَ قُدِّرَ أوْ يَوْمَ قُدِرْ
يَوم لاَ قُدِّرَ لاَ أرْهَبُهُ
وَمِنَ الْمَقْدُورِ لاَ يَنْجُو الْحَذِرَ

ويقول الآخر :

تقدمت أستبقى الحيــاة فلم أجد لنفسى حيــاة غـير أن أتقدما

وكما أن الحياة بيد الله ، فإن الرزق كذلك بيده . .

فالله هو الرازق ذو القوة المتين .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إلاَّ عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا[1] » .

وهو سبحانه ضمن لكل دابة ما يحفظ وجودها إلى الأجل المقدور .

فلم إذن يخاف الإنسان من الناس ؟ وهم بشر مثله ، لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة .

وهذا يقول الله سبحانه :

« أتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَاهُ[2] » .

وأثنى سبحانه على الأقوياء الشجعان ، الذين لم يبالوا بتهديد الناس . فقال :

« ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ[3] » .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة ،فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وقد قيل لهم : إنَّ المُشْرِكين قد اجتمعوا لحربكم، واستئصال شأفتكم، فلم يزدهم هذا التهديد إلا إيماناً، وثباتاً، وشجاعة. وقالوا : حسبنا الله وهو كافينا. ونعم الوكيل فى الدفاع عنا.

---

(١) هود آية ٦ (٢) الأحزاب آية ٢٧ (٣) آل عمران آية ١٧٣

لا تقنطوا من رحمة الله

للإسلام منهج واضح ، وسبيل معلوم .

وهذا المنهج يتمثل فى إدراك الحق ، وفعل الخير ، وذلك كفيل بأن يصل بالإنسان إلى الذروة والرفعة ، ويجعله جديرا بالخلافة عن الله فى الأرض .

إلا أن الإنسان كثيراً ما يضل عن الطريق المرسوم ، وينحرف عنه .

إما بسبب الجهالة ، أو بتأثير البيئة ، أو تحت ضغط شهوة جامحة . أو استجابة لإغراء عابث

وهذا الانحراف يهبط بالمستوى الإنسانى، ويحول بينه وبين التطهر والتسامى فتسقط قيمته ، ويرذل قدره ، وينحط إلى الدرك الذى يعوقه عن النهوض بتبعات الحق والخير .

وحين يصل المرء إلى هذا المستوى، لا تكون له رسالة سامية ، ولا هدف كريم ، ولا مثل أعلى .

وإنما تتجه جميع قواه إلى تحقيق ذاتيته ، وإشباع غرائزه ، وإيثار مصالحه الخاصة ، وتنكره للمصالح العامة

ويوم أن تخلو الدنيا من الضمائر والمثل العليا ، تتحول الحياة إلى صراع يكون أشد هولا ، وأبعد أثرا من صراع الحيوانات المفترسة .

ومن ثم : فإن الإسلام يدعو أبداً إلى الاستمساك بالحق ، والتشبث بعراه ، حتى لا يخطىء الإنسان الهدف ، أو يضل الطريق . يقول الله سبحانه :

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ[1] » .

وقد يحدث أن يضعف الإنسان ساعة يغفو فيها ضميره، وتنام فيها قواه الروحية بينما تكون غرائزه مشبوبة الأوار، فيعمى عن هدفه، ويسقط صريع الهوى والشهوة.

---

(١) الزخرف آية ٤٤ .

وفى خلال هذه المحنة يقال له :

لا عليك. . .

فإنك لم تخلق ملكا مطهرا ، ولا بشراً معصوما، وإنما أنت إنسان تتنازعك قوى الخير والشر، وتتغلب عليك طبيعتك الروحية أحياناً فتسمو وترتفع، وأحيانا أخرى تتغلب عليك شهوات الجسد فَتُخْلِد إلى الأرض، وترد إلى أسفل سافلين.

وإنما عليك أن تصحح أخطاءك إذا أخطأت، وتعالج أمراضك إذا مرضت، وتغسل نفسك مما يكون قد ران عليها ، وتستأنف السير من جديد .

يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه عليه:

[كل ابن آدم خَطَّاء . وخير الخطائين التوابون[١]] .

ويقول صلى الله عليه وسلم:

[إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها[٢]].

وبهذا تقل الأخطاء ، وتعود للضمير قوته ، وللقلب سلامته ، فتنتصر قوى الروح على نوازع المادة فى نفس الإنسان .

والله سبحانه ، يعلم طبيعة الضعف الإنسانى، فلم يكلفه العصمة، لأن التكليف بها تكليف بما لا يطاق — قال تعالى :

« لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا[٣] » .

وإنما كلفه أن يَفِرَّ إليه كلما فَرَّ منه ، وأن يتطهر من الدنس كلما تورط فى الإثم، وآدم عليه السلام أبو البشر ، هو القدوة والمثل : قال تعالى فى حقه :

« وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى »[٤]

ثم قال :

« فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[٥] » .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أنس .
(٢) رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .
(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦ . (٤) سورة طه آية ١٢٢ . (٥) سورة البقرة آية ٣٧ .

وهذه هى الـكلمات التى تلقاها منه :

« رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[١] » .

ومما حفظ من كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأىُّ عبدٍ لك لا ألمَّا]

وكثيرا ما يفتح الإسلام باب الأمل والرجاء ، ويدعو العُصَاة إلى التوبة والاستغفار ، وأنه سبحانه يغفر لهم مادعوه ورجوه ، مهما عَظُمَ الْجُرْمُ ، وكَبُرَ الإثم ،قال تعالى:

« قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[٢] » .

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً[٣] » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[٤] :

[قال الله تعالى :

يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالِى

يا ابن آدَمَ لو بَلغَتْ ذنوبك عنَانَ[٥] السماء : ثم استغفرتنى . غفرت لك ولا أبالى . . .

يا ابن آدم لو أتيتنى بِقُرَابِ[٦] الأرض خطايا[٧] ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفِرةً] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة الأعراف آية ٢٣
(٢) سورة الزمر آية ٥٣
(٣) سورة النساء آية ١١٠
(٤) رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح
(٥) عنان السماء : السحب.
(٦) قراب الأرض : ملء الأرض.
(٧) خطايا : جمع خطيئة .

[إن الله يَقْبَلُ توبة العبد مالم يُغَرْغِرُ] أي يحتضر .

والتوبة لا تحتاج إلى اعتراف كما فى المسيحية ، ولا إلى شيخ ، ولا إلى الذهاب إلى أى مكان ، وإنما هى يقظة نفسية ، واستشعار بالانحراف عن المنهج السوى ، ومحاولة العودة إليه ، والثبات عليه .

ومهما تيقظ الضمير ، وفطنت النفس إلى ما يجب أن تكون عليه ، وحاولت إصلاح الخطأ الذى وقعت فيه ، كان ذلك توبة يفرح الله بها ، ويغفر الذنب من أجلها . يقول الله سبحانه :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(١) » .

فالآية تقرر : أن الله سبحانه يغفر للذين يقترفون ماتعاظم قبحه ، أو يظلمون أنفسهم بفعل ما ينقصها مما يتنافى مع سموها – إذا ذكروا الله ، وذكروا أنهم ما قدروه حق قدره إذ قصروا فى حقه ، وفرطوا فى جنبه ، فسهم الألم اللاذع ، والحزن العميق ، فهرعوا إلى الإنابة والاستغفار، ورجعوا إلى إصلاح أخطائهم من قريب ، فذلك دليل صحة النفس ، وحياة القلب والضمير .

أما الإصرار على الإثم ، والتمادى فيه ، فهو مظهر الفراغ الروحى ، والموت الأدبى ، للذين يرتكبون كبائر الإثم والفواحش ، وهم لهذا قلما يشعرون بالألم الباعث على الندم . وما لجرح بميت إيلام .

ولهذا كان الإصرار من صفات الكافرين يقول الله فى سورة الواقعة :

« إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ(٢) » .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٦ .

(٢) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

وقد شرط الله سبحانه فى قبول التوبة أن تكون من قريب . وهو مثل شرط عدم الإصرار . فقال :

« إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ (١) ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ (٢) فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٣) » .

والمبادرة إلى العمل الصالح ، وفعل الحسنات تمحو السيئات كما يمحو ضوء الشمس ظلام الليل .

وإذا اقترن العمل بعمق الإخلاص ، وقوة اليقين ، كان أذكى للنفس ، وأنقى وأطهر وكانت المغفرة ماحقة للذنوب جميعاً . ومن ثم كانت التوبة دائماً مقترنة بالعمل الطيب .

« كَتَبَ (٤) رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) » .

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٦) » .

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) »

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً (٨)

---

(١) الجهالة الطيش والسفه . (٢) أى بعد مباشرة الذنب .

(٣) سورة النساء آية ١٧ (٤) الأنعام آية ٥٤ .

(٥) أى أوجب على نفسه رحمة منه وتفضلا أن من عمل ذنبا من غير تعقل ولا روية ولا إصرار ثم سارع إلى التوبة والندم وأصلح أعماله فإن الله غفر له لأنه غفور رحيم : سورة الأنعام آية ٥٤ .

(٦) سورة طه ٨٢ . (٧) سورة النحل آية ١١٩ .

(٨) أى أن الله يمحو سيئاتهم التى فعلوها بالتوبة ويوفقهم للأعمال الصالحة التى يكافئهم الله عليها بالحسنات التى تحل محل السيئات الممحوة .

فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما • ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا [(١)] » .

[وقد روى ابن مسعود أن رجلا من الصحابة أصاب من امرأة قبلة ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فأنزل الله تعالى :

« وأقم الصلاة طرفي [(٢)] النهار وزلفا [(٣)] من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

فقال الرجل :

ألي هذا يا رسول الله ؟ قال : لجميع أمتي كلهم [(٤)]] .

وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام يصلي ركعتين ، أو أربعا مكتوبة ، أو غير مكتوبة يحسن فيهن الركوع والسجود ، ثم استغفر الله غفر الله له [(٥)]] .

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[ما من رجل يذنب ذنبا ، ثم يقوم فيتطهر ، ثم يصلي ، ثم يستغفر الله ، إلا غفر له ثم قرأ هذه الآية :

« والذين إذ فعلوا فاحشة . . . » الآية [(٦)]] .

وتسمى هذه الصلاة صلاة التوبة .

والأعمال الصالحة المكفرة للذنوب كثيرة، نذكر منها بعض النماذج على سبيل المثال .

فمنها الوضوء :

١ — عن عثمان بن عفان رضي الله عنه . قال :

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٨ — إلى ٧١ (٢) طرفي النهار : صلاة الصبح والعصر .
(٣) والزلف : الساعات من الليل (٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه الطبراني في الكبير بسند حسن .
(٦) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه البيهقي والترمذي وقال : حديث حسن .

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثل وضوئى هذا ، ثم قال :
[من توضأ هكذا، غفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة[١]]

٢ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه ، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ، فإذا غسل يديه خرج كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرج نقياً من الذنوب[٢]] .

ومنها الصلاة :

١ فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : إسباغ الوضوء على المكاره[٣] وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط[٤]] .

٢ — وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم ، يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنِهِ شيء ؟

قالوا : لا يبقى من درنه شيء .
قال : فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا[٥]].

٣ — وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال :

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه مسلم .
(٣) إسباغ الوضوء على المكاره معناه إتمام غسل الأعضاء . فى البرد الشديد .
(٤) الرباط : الإقامة فى الثغور لمقاومة الأعداء أى أن ثواب انتظار الصلاة يعدل ثواب المرابطة فى سبيل الله . رواه البخارى ومسلم . (٥) رواه البخارى .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[مامن امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها، وخشوعها، وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، مالم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله[١]]

٤ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ، ما دام مصلاه ، ما لم يحْدِث .
تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة[٢]].

ومنها صلاة الجمعة :

عن سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[لا يغتسل رجل يوم الجمعة ، ويتطهر ما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه ، أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كُتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام ، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى[٣]] .

ومنها ختم الصلاة .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال :
[من سبح الله ـ فى دُبُرِ كل صلاة ـ ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وقال . تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر[٤]] .

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه البخارى
(٤) رواه مسلم .

ومنها الحج والعمرة :

١ — قال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
[من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيومَ ولدته أمه(١)] .

٢ — وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[العمرة إلى العمرة كفارةلما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة(٢)]

ومنها الجهاد :

١ — عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشِعب فيه عيينة من ماء عذبة ، فأعجبته ، فقال :
لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

[لا تفعل .
فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً .
ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟
أغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فُواق(٣) ناقة وجبت له الجنة(٤)] .

٢ — وعن أبي قَتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فيهم خطيباً فذكر : أن الجهاد فى سبيل الله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت فى سبيل الله . أتكفر عنى خطاياى ؟
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) رواه البخارى .
(٣) الفواق : المدة من الزمن التى تكون بين الحلبتين أو مدة الحلب نفسه .
(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

[نَعَمْ . إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر[١] .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كيف قلت ؟ قال أرأيت إن قتلتُ فى سبيل الله . تكفر عنى خطاياى ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

نَعَمْ وأنت صابر محتسب . مقبل غير مدبر ، إلا الدَّين ، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك] .

ومنها حسن الخلق :

والسماحة ، وبشاشة الوجه ، والصفح عن الإساءة ، كل ذلك مكفر للذنوب .

١ — يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا[٢]] .

٢ — وقال . . .

[رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى[٣]] .

٣ — وقال صلى الله عليه وسلم :

[تلقت الملائكة رُوح رجل ممن كان قبلكم فقالوا له :

أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : كنت أنْظِر الموسر[٤] ، وأتجاوز عن المعسر .

فتجاوز الله عنه[٥]] .

٤ — ويقول سبحانه :

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ[٦] » .

وغفران الله يحيط بالمذنب الدنس ، إذا تفجر فى قلبه نبع البر والرحمة .

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه البخارى .

(٤) انظر المسر ، أرجئه إلى ميسرة

(٥) رواه البخارى

(٦) سورة النور .

٥ — يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

٤ [بينما كلب يطيف بركيّةٍ[١] قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغيّ[٢] من بغايا بنى إسرائيل فنزعت مُوقَها[٣] فاستقت له به ، فسقته ، فغفر لها به] .

ومنها الآلام :

فكل ما يصيب المسلم من ألم ، فهو مطهر له من السيئات . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

١ — [ما يصيب المسلم من نَصَب[٤] . ولى وَصَبٍ[٥] ولا همّ . ولاحزن . ولا غَمّ حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه] .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

٢ — [ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى ولده وماله ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة[٦]] .

كفارة المجلس :

والإنسان مهما لغط فى مجلسه ، وخلط فى حديثه ، وقال مالا فائدة فيه ولا طائل تحته ، ثم ختم كلامه بذكر الله ، كان ذلك كفارة للغو .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه . فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم و بحمدك . أشهد ألا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك[٧]] .

---

(١) يطيف بركية : يدور ببئر

(٢) بغى : زانية .

(٣) الموق : الحذاء

(٤) النصب : التعب

(٥) الوصب : المرض.

(٦) رواه الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح.

(٧) رواه الترمذى . وقال : حديث حسن:

ملازمة الاستغفار :

واستغفار[١] الله سبحانه ، يعجل بالخلاص ، ذلك أنه يقصد به التوبة النصوح ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا . وفي كل هم فرجاً . ورزقه من حيث لا يحتسب[٢]] .

وهذا كقول الله سبحانه :

« فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا[٣] » .

وقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ * وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[٤] » .

وروى

[أن الله جعل لهذه الأمة أمانين : وجود الرسول صلى الله عليه وسلم . والاستغفار . فذهب أمان . وبقي أمان] .

ويقول الله سبحانه : « وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ[٥] » .

فالاستغفار من أسباب رفع البلاء ، كما أن حسن التمتع بالدنيا أثر من آثاره .

---

(١) الاستغفار : طلب المغفرة من الله على ما اقترنه من إثم . أو قصر فيه من عمل .
(٢) رواه أبوداود (٣) سورة نوح الآيات : ١٠، ١١، ١٢ (٤) سورة الأنفال ٣٣
(٥) سورة هود آية : ٣

وسبب ذلك أن الاستغفار يدفع الشر عن الإنسان ، وبقدر ما يندفع عنه الشر ، يكثر الخير فى نفسه ويزداد .

ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول .

[يا أيها الناس توبوا إلى لله ، واستغفروه ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة] .

وكان صلى الله عليه وسلم . يعلم أصحابه سيد الاستغفار . وهو :

[اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت] .

[ثم يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيما يرويه عنه البخارى :

من قالها فى النهار موقنا بها فمات من يومه ، قبل أن يمسى ، فهو من أهل الجنة . ومن قالها من الليل ، وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة ! !]

ومنها التسبيح والتحميد :

ومن أسباب الغفران ، هــــذا الذكر الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

[من قال سبحان الله وبحمده ، فى يوم مائة مرة ، حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر] .

ومنها اجتناب الكبائر :

وليست الأعمال الصالحة المزكية للنفس وحدها هىالتى تمحو السيئات ، بل

إن اجتناب كبائر الإثم يكفر الصغائر ، ويذهب بها . ولا يشترط لذلك توبة .

يقول الله سبحانه :

« إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا[١] » .

والكبائر : هي الذنوب ، التي جعل الله عقوبتها حدًّا ، أو توعَّد عليها بالنار ، أو لعن فاعلها ، أو سماها الشرع كبيرة .

وهي لا تغفر إلا بالتوبة النصوح ، التي أمر الله بها في قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ[٢] » .

والتوبة النصوح : تنتظم الألمَ والندَمَ على مامضى ، والإقلاع عن الذنب في الحاضر ، والعزم الأكيد على استئناف حياة صالحة فيما يستقبل من الزمان ، فإن كان ثمة حقوق للعباد وجب ردها إلى أصحابها ، أو استحلالهم منها إن أمكن . وهذه التوبة هي التي يقبلها الله سبحانه ويفرح بها .

يقول الله سبحانه :

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[٣] »

---

(١) سورة النساء آية : ٣١ .　(٢) سورة التحريم آية : ٨ .

(٣) سورة الشورى آية : ٢٥ .

وفى حديث أنس رضى الله عنه الذى رواه البخارى ومسلم . أنه صلى الله عليه وسلم قال : ـ

[للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكم سَقَطَ على بَعيرِه وقد أضلّه[(١)] بأرض فلاة] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم :ـ فيما يحكيه عن ربه تبارك وتعالى ـ

[أذْنَبَ عَبْدٌ ذنباً ، فقال : اللهم اغفر لى ذنبى .

فقال الله تبارك وتعالى :

أذنب عبدى ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب .

ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب اغفر لى ذنبى .

فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ، و يأخذ بالذنب .

ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب اغفر لى ذنبى .

فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . قد غفرت لعبدى . فليفعل ماشاء[(٢)]] .

ومنها حسن الظن بالله :

على أن حسن الظن بالله ، مما يجمل أن يتصف به كل مسلم .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فيما يرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه عزَّ وجَلَّ :

[أنا عند ظن عبدى بى] .

أى أن الله يعامل الإنسان حسب ظنه به . فإن ظن أن الله سيعفو عنه ،

---

(١) أضله : أى وجد بعيره بعد أن فقده فى صحراء . (٢) رواه البخارى ومسلم .

فإن الله سيحقق له العفو . وإن ظن أن الله سيكون له فى أمر من أموره ، فلن يتخلى عنه

وروى أبو داود ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال :

[حُسْنُ الظن من حسن العبادة] .

لأنه ظن بربه ماهو أهْلٌ له من الخير .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوى. وَأَهْلُ الْمَغْفِرَة)

[وروى البخارى ومسلم : عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال :

قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبْىٌ ، فإذا امرأة من السبى[1] تبحث عن صَبِيِّها . وكان ضائعاً ـ فلما وجدته أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته : فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أَتَرَوْنَ هذه طارِحةً ولدها فى النار ؟ قلنا : لا والله . وهى تقدر ألا تطرحه ، فقال :

لَلّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها . .]

ومع ذلك فينبغى أن يأخذ الإنسان بالأسباب الموصلة إلى النجاة والخلاص، ولا يقف عند مجرد إحسان الظن بالله .

فقد روى البخارى فى التاريخ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[ليس الإيمان بالتمنى . ولـكن ماوَقَرَ[2] فى القلب وَصَدَّقَهُ العَمل . وإنَّ قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله . وَكَذَبُوا . لو أحسنوا الظن لأحْسَنُوا العمل] .

---

(١) الأسرى من الرجال والنساء .　　(٢) وقر : استقر .

عفو الله :

ثم يبقى بعد ذلك ستر الله الواسع ـ وعفوه العظيم .

فعن ابن عمر رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

[يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كَنَفَهُ (١) فيقرره بذنوبه ـ فيقول : أتعرِفُ ذنبَ كذا ؟ ـ أتعرف ذنب كذا ؟ ـ فيقول : ربِّ أعرف ـ قال تعالى : فإنى قد سترتهما عليك فى الدنيا ـ وأنا أغفرها لك اليوم ـ فيعطى صحيفةَ حسناتِهِ] .

ولـكن يشترط لذلك أن يستر الإنسان نفسه فى الدنيا ـ فلا يجهر بما يفعل من سيئات ، فإن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى . . لأن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول أو الفعل .

روى الحاكم بإسناد حسن ـ عن ابن عمر رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[اجتنبوا هذه القاذوراتِ ، التى نهى الله عنها. فمن ألَمَّ بشىء منها ، فَلْيَسْتَتِر بِستْرِ الله] .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[كل أمتى معافى إلا المجاهرين ـ وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عَمَلاً ثم يصبح ، وقد ستره الله تعالى عليه ـ فيقول :

يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ، ويُصْبِح

---

(١) كنفه : ستره ورحمته .

يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عليه [(١)] .

دعاء الملائكة :

والله سبحانه لسعة مغفرته ، ولحبه لعباده ، يلهم ملائكته أن يضرعوا إليه بالدعاء ، ويسألوه برحمته التي وسعت كل شيء ، وعلمه الذي وسع كل شيء ، أن يغفر للتائبين ويدخلهم في عباده الصالحين .

« ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٢) » .

والمغفرة هي غاية الغايات .

ومن أجل هذا ، كانت النعمة التي اقترنت بجلائل النعم ، التي أفاضها الله على رسوله .

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً (٣) » .

---

(١) ويباح له أن يخبر بمعصيته إذا كانت هناك مصلحة . كأن يخبر من يعينه على الخلاص من معصيته ، أو يعلمه ما يسلم به من الوقوع في مثلها .

(٢) سورة غافر آية ٧ .

(٣) سورة الفتح آية : ١ ، ٢

وكانت هى الدعاء الذى يهتف به المؤمنون ، والهدف الذى ينشدونه فى كل حين

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ[١] » .

ومن أبلغ ماقيل فى هذا المقام قول ذلك العبد الصالح :

[إن استغفارى مع إصرارى للؤم . . .

وإن ترك استغفارى مع علمى بسعة عفوك لعجز . .

فكم تتحبب إلىّ بالنعم مع غناك عنى ...

وأتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك . . .

يامن إذا وعد وَفَّى . . .

وإذا توعد عفى . . .

أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك . ياأرحم الراحمين] .

وقال أبو العتاهية :

إلهى لا تعذبنى فإنى مقر بالذى قد كان منى

فما لى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوتَ وحسنُ ظنى

وكم من زلة لى فى الخطايا وأنت علىَّ ذو فضل ومَنِّ

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٩٣ ، ١٩٤

إذا فكرت في ندمي عليها عضضتُ أناملي وقرَعْت سِنِّي
أُجَنُّ بزهرة الدنيا جنونا وأقطع طول عمري بالتمني
ولو أني صدقت الزهد عنها قلبتُ لأهلها ظهر المِجَنِّ
يظن الناس بي خيراً وإني لشر الخلق إن لم تعف عني

[وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال :
واذُنُوبَاه . . . واذنوباه . . .
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : قُلْ :
اللهم مغفرتُك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى عندي من عملي -
فقالها ..
ثم قال : عُد . فعاد .
ثم قال : عد . فعاد .
ثم قال : قم . فقد غفر الله لك] .

لا إلٰهَ إلاّ أنا فاعْبُدُون

١ — معنى العبادة وأثرها :

العبادة معناها : طاعة الله ، والخضوع له ، والتزام ماشرعه من الدين .

« إنْ الْحُكْمُ إلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ [1] » .

والعبادة بهذا المعنى تجعل الإنسان لا يخضع إلا للحق الذى أوحاه الله ، وتجنبه الظنون والأوهام والأباطيل ، وتحول بينه وبين الخضوع لسيطرة رجال الدين ، وتفتح أمامه الطريق ليتصل مباشرة بالله .

وهى فى الوقت نفسه تذكير بالله . والتذكير بالله يعمر القلب بعظمته ، وإذا عمر القلب بمعرفة الله وعظمته ، وجه قوى النفس إلى البر والخير ، وكفها عن الإثم والشر . ومن ثم كانت العبادة ركناً أساسياً فى بناء الشخصية المتكاملة التى يريدها الله ، وكانت قياماً للمجتمع الصالح ، وكانت هى غاية الحياة .

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ . وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [2] » .

٢ — مسئولية الإنسان عنها :

ولأجل أن يصل الإنسان إلى هذه الغاية ، زوده الله بالعقل والاختيار ،

(١) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ — ٥٨ .

وأمده بالوحى ، وجعله بهذا أهلا لحمل مسئولية العبادة ، ليقطع عذره ، ويقيم عليه الحجة .

« إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (١) » .

« وَإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ، وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢) » .

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (٣) » .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِى إلَيْهِ أَنَّهُ لا إلٰهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٤) » .

« رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (٥) » .

---

(١) الأحزاب آية ٧٢ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٧٤ .
(٣) سورة النحل آية ٣٦ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٢٥ .
(٥) سورة النساء آية ١٦٥ .

٣ — العبادة حق الله :

ومع ما للعبادة من آثار ،فهى حق من حقوق الله سبحانه ، فإن من عرف الله عرف استحقاقه للحب ، والتعظيم والحمد ، والثناء ، والشكر .

لأنه هو الذى وهب الإنسان الحياة ، وأمده بما يحفظها .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [١] » .

وعن معاذ بن جبل قال : كنت رِدْف [٢] النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

[يامُعاذ ، أتدرى ماحق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ .

قات : الله ورسوله أعلم .

قال :

فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله عز وجل أن لايعذِّبَ من لايشركُ به شيئاً [٣]] .

وهذا الحق باق مابقى فى الإنسان نَفَسٌ يتردد .

« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [٤] » .

وإذا كانت العبادات جزءا مُكمِّلاً للشخصية فإن ذلك يتجلى فيما نذكره

(١) سورة البقرة آية ٢٢ .
(٢) ردف : راكبا خلفه .
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى .
(٤) اليقين : الموت .

من بعض حكم العبادات العملية ، وأسرارها النفسية ، والخلقية ، والاجتماعية ، كما جاء ذلك فى الكتاب السنة .

٤ — حكم الصلاة وأسرارها :

الحكم النفسية :

وبتتبع النصوص الواردة فى الكتاب والسنة ، يمكن معرفة حِكَم الصلاة النفسية .

[يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

إذا قام أحدكم يصلى فإنه يناجى ربه] .

والمناجاة : مخاطبة الله مباشرة ، وهى تشعر المرء بوجود الله وجوداً حقيقياً ، وأنه قريب منه ، يسمع دعاءه ، ويلبى نداءه ، ويستجيب له .

وإذا واظب المصلى على هذه المناجاة ، خمس مرات فى اليوم والليلة ، تيقظت قواه الروحية ، وأحس بأن الله يمده بالقوة ، والعون . وأنه سبحانه معه لايتخلى عنه ، فتقوى عزيمته ، وتشتد إرادته ، ويمضى إلى غايته دون تردد أو ضعف مهما اعترضته الصعاب ، أو واجهته العقبات .

وإذا ظفر بمطلوبه وبلغ الذروة من الفوز والنجاح ، فإن ذلك لايزدهيه ، ولا يداخله الغرور . ولو قدر أنه لم يبلغ مايريد ، فإنه لايحزن ، ولا ييأس ، بل يعيد المحاولة من جديد ، واثقاً بالله ، ومتوكلا عليه .

هذا من جانب . . .

ومن جانب آخر فإن الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها ، وتوجيه لها إلى الله بالذكر ، والدعاء ، والضراعة ، والخضوع لكبريائه وعظمته .

وهذا من شأنه أن يضفى على النفس السكينة والرضا ، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة فتتجدد قواها ، ويحفزها ذلك إلى العمل الجاد والأمل فى وجه الله الكريم .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بلالا ليؤذن بالصلاة حين يشتد عليه الأمر ويقول :

[أرحنا بالصلاة يا بلال] .

وكان يقول :

[وجعلت قرة عينى فى الصلاة] .

آثارها الخلقية :

والإنسان لا يصل إلى القرب من الله ، ولا يسعد برضاه إلا إذا تطهر من الرذائل وسائر الصفات السيئة .

يقول الله تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ [1] » .

والصلاة هى الوسيلة لهذا التطهير .

لأن المواظبة عليها تربى فى المصلى الضمير الحى ، الذى يبعث على الخير ، ويحض عليه ، ويمنع الشر ، ويحذر منه .

لهذا نجد الآية الكريمة تقول :

« إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ [2] » .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن الصلاة تغرس فى النفس فضيلتى الثبات والكرم –

---

(١) سورة الأعلى آية ١٤ ، ١٥ . (٢) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

وهما من أكرم الخصال ، وأشرف الخلال . فإذا أصاب المصلى ما يكره لايستبد به الجزع والهلع .

وإذا أفاض الله عليه بالنعم والآلاء ، لايستأثر بها ، بل يشرك معه فيها غيره . وإلى هذا تشير الآية .

« إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ[(١)] » .

آثارها الاجتماعية :

وإذا كانت الصلاة تكسب المرء سكينة النفس ، وتطبعه بطابع خلق جميل.

فإن هذه الصفات تجعل المقيم لها رضى النفس ، حسن الخلق ، عضواً نافعاً فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وتخلق منه خلية حية تعمل وتنتج ويعم خيرها الناس .

ثم إن الإسلام حبب فى صلاة الجماعة ، وأوجب صلاة الجمعة كل أسبوع .

واجتماع أهل الحى فى اليوم خمس مرات مع اجتماعهم يوم الجمعة اجتماعاً أوسع مدى - يقوى الروابط الإجتماعية ، ويشد أواصر الصِّلات بين الجماعة ، ويشعر كل واحد بأنه أخ لكل من فى المسجد ، وأنه مساوٍ له ، فتنمو روح المساواة الحقيقية . لافرق بين غنى وفقير . ولا بين عظيم وحقير . فكلهم عباد الله ، اجتمعوا فى بيته تظللهم ظلال المحبة والأخوة فى الله .

وبهذه الممارسة العملية للمساواة ، تنتفى فوارق اللون ، وفوارق الثراء ، وفوارق الدم ، فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً بأنه للجماعة ، وتشعر الجماعة بأنها للفرد .

---

(١) سورة المعراج الآيات من ١٩ إلى ٢٣ .

وهذه الغاية هى أسمى الغايات، التى يجهد العلماء ،والحكماء ، والمربون والفلاسفة أنفسهم فى تحقيقها ، ليعم البشرية الأمن والسلام .

ويلاحظ أن هذه الحكم لا يمكن أن تتحقق،إلا إذا أقبل المصلى على صلاته بوعى كامل ـ ويقظة تامة ـ وتأمل حقيقى فى أقوال الصلاة وأفعالها .

وهذا هو المعبر عنه بالخشوع فى قول الله تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) » .

فإذا تجردت الصلاة من هذا الوعى، كانت قليلة الثمرة ، بل عديمة الجدوى .

ولنصغ إلى هذا الحديث القدسى، الذى يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه :

[إنما أتقبل الصلاة .

ممن تواضع بها لعظمتى .

ولم يستطل بها على خلقى ..

ولم يَبِت مصراً على معصيتى

وقطع النهار فى ذكرى . .

ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب . .

ذلك نوره كنور الشمس

أكلؤه بعزتى . .

وأستحفظه ملائكتى .

وأ[illegible] فى الظلمة نوراً.

وفى الـ[illegible] حلماً .

ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة . . .]

(١) سورة المؤمنون آية ١ ، ٢

٥ — حكم الزكاة وأسرارها :

الزكاة فريضة من فرائض الإسلام ، وهى ركن من أركان الدين ، وقد شرعت لحكم كثيرة. منها ماهو نفسى ، ومنها ماهو خلقى ، ومنهاماهو اجتماعى مثل الصلاة .

الحكم النفسية للزكاة :

إن الزكاة عطاء وبذل ، ومواساة ومعاونة ، والنفس بطبيعتها تهتز للكرم، وتفرح بالجود ، وتجد الراحة والاطمئنان فى مواساة الغير ، وإدخال السرور عليه .

وهذا هو السبب فى أن بعض الناس يقومون بمساعدة المحتاجين ، ومعاونة المعوزين ، دون رغبة فى ثواب ، أو رهبة من عقاب .

وكما أن المعطى يهتز للجود والندى. فإن الآخذ لايقل عنه فرحاً واغتباطاً .

[سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ؟ . فقال :
إدخال السرور على المؤمن .

قيل : وما إدخال السرور على المؤمن ؟

قال : سد جوعته ، وفك كربته ، وقضاء دينه] .

أثرها فى الأخلاق :

والإنسان يحب المال بطبعه. وهذا الحب يدعو صاحبه إلى البخل ، والحرص والجشع ، والأنانية ، والأثرة ، وسائر الرذائل الخلقية .

وهذه الصفات تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، وإلى هذ المعنى يشير الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

[أدوأ الداء البخل] .

ويقول :

[شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع] .

ولا يتخلص المرء من هذه الرذائل ، إلا بالتمرين على البذل ، والدُّربة على العطاء ، ومن ثم كانت الزكاة ضريبة إجبارية ، لا يملك المرء أن يتخلص منها

وإلى هذه المعانى تشير الآية الكريمة :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا [1] » .

على أن مغالبة النفس ، والانتصار عليها بإخراج المال المحبوب لها ـ فيه دليل على قوة الإيمان ، وكمال اليقين ، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[الصدقة برهان] .

أى دليل على قوة الإيمان والإرادة ..

وإذا انتصرت النفس على هواها ومحبوبها ، مرة بعد مرة ، أصبحت مذللة لحكم العقل ، وخاضعة لأوامر الله ، وبعيدة عن الاندفاع العاطفى .

أسرارها الاجتماعية :

والفقراء يمثلون أكثرية من أفراد المجتمع . ولا بد من رعاية هؤلاء المساكين والعجزة والضعفاء ، والمحافظة على إنسانيتهم وكرامتهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإخراج جزء معلوم من أموال الأغنياء ، حتى يُكْفَى هؤلاء ليصبحوا أعضاء نافعين ومواطنين صالحين ، وقد يكون فيهم من هو أوفر ذكاء ، وأقدر على النهوض بالأعمال الجسام إذا وجد ما يقوم بحاجته الضرورية من الطعام والملبس والمأوى .

وفى الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

[إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا ، أو عروا ، إلا بما يصنع أغنياؤهم .

ألا و إن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً] .

و إذا لم يجد الفقراء والضعفاء الكفاية مما هو ضرورى ، وتعرضوا للجوع حملهم ذلك على الإتيان بكل ضرب من ضروب الشر ، للحصول على الضرورى من القوت ، فإن البطون إذا جاعت دفعت أصحابها إلى الجرائم ، وارتكاب كل موبقة ، واعتبرت ذلك عملا مشروعاً .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجماعة التى ينتشر فيها الفقر ، وينشب أنيابه فيها تشتعل فيها العداوة والبغضاء ، فيهتز كيان الأمة بما يشيع فيها من تقاطع ، وتتعرض لرواج المذاهب المتطرفة ، ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلا بإخراج حق الفقراء ونصيبهم الذى فرضه الله وجعله أمانة فى يد الأغنياء ، يقول الله سبحانه :

« وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ [1] » .

ثم إن الزكاة تقوى الصلات بين الأغنياء والفقراء ، وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير ، وتنمية المال ، وتقوية الأواصر .

وهى الضمان الإجتماعى الذى يكفل التوازن بين الطبقات ، ويضمن اشتراكية سليمة ، وهى أفضل وسيلة لتوزيع المال ، فهى فى الوقت الذى لا يضيق بها الغنى ، ترفع مستوى الفقير إلى حد الكفاية ، وتجنبه شظف العيش ، وألم الحرمان .

هذه بعض آثار الزكاة النفسية ، والخلقية ، والاجتماعية ، ومن شأنها أن تصل بالمجتمع إلى أسمى درجات السمو والكمال .

---

(١) سورة الحديد آية : ٧

٦- حكم الصيام وأسراره :

أسراره النفسية :

يقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ[1] » .

بالتأمل فى هذه الآية تتبين لنا الحكم السامية من هذه العبادة .

فالله سبحانه يقول :

إنه فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على من تقدمها من الأمم ، ليعد النفوس ويهيئها لكل خير وبر .

وذلك . . . أن الصائم يترك شهواته ، وأحب الأشياء إليه – مع قدرته عليها – متثالا لأمر الله ، ومسارعة إلى مرضاته ، وهذا من شأنه أن يورث خشية الله ، وينمى ملكة المراقبة ، ويوقظ الضمير .

ثم إن الصيام يقوى الإرادة ، ويعودها الصبر والاحتمال ، فيستطيع الإنسان مواجهة الحياة ، ومكافحتها بشجاعة ، فلا تثنيه صعابها ، ولا تتغلب عليه أحداثها .

وبقدر ما تقوى الإرادة ، يضعف سلطان العادة .

وبذلك تتاح الفرص لهجر الكثير من العادات السيئة : مثل عادة التدخين وتناول المكيفات ، وغيرها مما يضعف البدن ويمرضه ، ويذهب بالمال فى غير طائل .

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٨

وبإيقاظ الضمير وتقوية الإرادة يعظم الإنسان ويشرف ، ويصل إلى الذروة من الفوز والنجاح .

أسراره الخلقية :

والصيام ليس مجردَ الإمساك عن المفطرات ، وإنما هو هجر جميع المعاصى والسيئات ، فلا يحل للصائم أن يتكلم إلا حسناً ، ولا يفعل إلا جميلا ، وإلى ذلك يشير الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله :

[الصيام جنة] أى وقاية من المنكرات والشرور .

وبهذا يكون الصيام درسا عمليا فى أخذ النفس بالفضائل ، وحملها على الاتصاف بكل ماهو حسن فى جميع الحالات .

وبذلك تزكو وتطهر ، ويصبح الإنسان مأمول الخير ، مأمون الشر .

فإذا لم يبلغ الصيام بالإنسان هذه الغاية من التهذيب ، فإن صيامه لا وزن له عند الله ، وأنه لاحظ له من صيامه إلا الجوع والعطش . . .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

[رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش] .

ويقول :

[من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه] .

حكمه الاجتماعية :

والصيام فيه معنى المساواة بين الأغنياء والفقراء فى الحرمان ، وترك التمتع بالشهوات ، وهذا من شأنه أن يرفع من نفس الفقير إذ يجد الغنىّ مثله فى القيام بهذه الفريضة .

كما أنه يفجر ينابيع الرحمة والعطف فى قلوب الأغنياء ، ويبعثهم على مواساة الذين ضاقت بهم سبل العيش ، فتتآلف القلوب ، وتذهب الأحقاد ، ويتعاون الفقراء والأغنياء على النهوض بالمجتمع وتوفير الطمأنينة له .

ولقد كان يوسف عليه السلام ، أمينا على خزائن الأرض ، وكان يكثر من الصيام .

فسئل عن ذلك فقال :

أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

هذه هي آثار الصيام وحكمه في النفس ، والخلق والمجتمع ، وهي آثار بعيدة المدى ، إذ أنها تُعد الفرد المهذب ، والمجتمع الفاضل ، وتصل بالأمة إلى غاياتها من الرفعة والسمو .

٧ — حكم الحج :

قد يبدو أن الحج عبادة رمزية ، غير معقولة المعنى ، ولا ظاهرة الحكمة ، وأن ما يأتيه الإنسان من أعمال إنما هو امتثال للأمر ، وإظهار للعبودية ، وقيام بحق الله ولكنه عند التأمل تتجلى أسراره ، وتظهر آثاره النفسية ، والخلقية ، والاجتماعية .

أسراره النفسية :

إن شعائر الحج تثير في النفس ذكريات عذابا ، إذ أنها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

والحج يلقي على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شاخصة للعيون ، ومائلة في الأذهان .

إن إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع قواعد البيت ، وإسماعيل .

وهو أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض .

ومن ثم أمر الحنفاء أن يتوجهوا إليه كلما توجهوا إلى الله في صلاتهم ، وأن يتلاقوا عنده كل عام ، يحدوهم الحب في الله ، والاجتماع عليه ، ليعلنوا تضامنهم . واتفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد .

ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول ، وتحن إليه ، وتقيم لذلك المعالم المادية ، وتتخذ منها حافزاً ، يرقى بحاضرها ، وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى .

ولقد جاشت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانفعلت بهذه الذكريات ، فبكى، وهو عند الكعبة ، وقال :

[ياعمر : هنا تسكب العبرات] .

آثاره الخلقية :

والحج نوع من السلوك ،ولون من ألوان التدريب العملى على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى ، والاندماج فى حياة روحية خالصة ، تمتلىء فيها القلوب بحب الله، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره مثنية عليه .

بينما يرتدى المرء ملابس الإحرام ،وهى ملابس خالية من الزينة ، ومن كل ما يثير فى النفس دواعى العجب والخيلاء .

يقول الله تعالى :

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ (٢) » .

تشير هذه الآية،إلى أن المرء حينما يدخل فى أعمال الحج ،يجب عليه أن يعيش فى جو من العفاف والأدب العالى .

فلا يتدلى إلى رفث ، ولا يميل إلى فسوق ، ولا ينطق بكلمة طائشة ، أو ينظر نظرة فاحشة .

كما تشير أيضاً إلى فعل الخير ، وهو عمل إيجابى يجمل بكل مؤمن أن يهتم به ،ويحرص عليه .

آثاره الاجتماعية :

يمكن تلخيص الحكم الاجتماعية للحج فيما يلى :

---

(١) البقرة : آية ١٩٧

١ - إن الحج رحلة سياحية لتجميع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ، ليشهدوا المنافع التى تعود عليهم بالخير والبركات ، سواء أكانت منافع روحية ، أم منافع اقتصادية ، أم منافع سياسية .

٢ - إن فيه تعارف الشعوب الإسلامية ، وتوحيد غاياتهم التى توجههم الوجهة التى تأخذ بأيديهم إلى حياة القوة والعزة والعلم والعمل . بما يفيده بعضهم من بعض ومن تبادل الآراء المختلفة ، والثقافات المتنوعة .

٣ - يمكن عقد معاهدات واتفاقات فى موسم الحج ، ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصادى والثقافى ، مما تحتاج إليه هذه البلاد .

هذه هى بعض حكم الحج وأسراره .

فلننظر إلى أرض الواسعة ، ولنستحضر كل المؤتمرات والتجمعات ، فهل نجد مجتمعاً أطهر وأبر من هذا المجتمع ، مع هذا العدد الوفير ، والكثرة الكاثرة ؟
وصدق الله العظيم إذ يقول :

« وَأَذِّنْ فى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ [1] » .

---

(١) سورة الحج آية : ٢٧ ، ٢٨ .

الجانب الخلقي

- إنّ هذا الخير خزائن
- فاستقم كما أمرت .
- وأحسن كما أحسن الله إليك .
- الحياء شعبة من الايمان .
- فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته
- الصدق طمأنينة . . .
- إنّ الله يحبّ الرفق في الأمر كلّه

إنَّ هذا الخيرَ خزائن

١ — الدعوة إليه :

إن أسمى الغايات، وأنبل المقاصد ، أن يحرص الإنسان على الخير ، ويسارع إليـه .

وبهذا تسمو إنسانيته، ويتشبه بالملائكة، ويتخلق بأخلاق الله البار بعباده، الرحيم بخلقه .

ومن ثم فإن الله سبحانه يأمر بفعل الخيرات ، والمسابقة إليها ، فيقول :

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1] » .

أى أن غايات الناس مختلفة ، وأهدافهم شتى ، فمنهم من تتحكم فيـه الشهوات البدنية ، ومنهم من تتحكم فيه الشهوات النفسية ، كالجاه والرئاسة ، والعلو فى الأرض بغير الحق ، وهو مايسمى عندهم بالكرامة والشرف .

أما الإسلام فإنه يجعل وجهة المسلم متجهة إلى فعل الخير والمسابقة إليه دائماً.

وقد أكثر الله سبحانه من الدعوة إلى الخير ، وجعله أحد عناصر الفلاح والفوز ، فقال الله سبحانه :

« وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[2] » .

وأخبر أنه أوحى إلى أنبيائه ورسله فعل الخيرات فقال :

---

(١) « سورة البقرة » آية : ١٤٨

(٢) « سورة الحج » آية : ٧٧.

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ[١] » .

ومدح المسارعين إليه . والحريصين عليه ، فقال :

« إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ[٢] » .

وجعل جزاءه الجنة، فقال :

« وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً[٣] » .

وروى ابن ماجه، عن سهل بن سعد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[إن هذا الخير خزائن ، ولهذه الخزائن مفاتيح ، فَطُوبَى[٤] لعبد جعله الله مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر، مغلاقاً للخير].

والله سبحانه يوازن بين مباهج الدنيا ومفاتنها ، وبين المثل العليا والاتصاف بالمكارم ، ويبين أن الفضائل أبقى أثراً، وأعظم ذخراً ، وأجدر باهتمام الإنسان، وخير له فى الدنيا والآخرة .

يقول الله سبحانه :

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً[٥] » .

---

(١) « سورة الأنبياء » آية ٧٣
(٢) « سورة الأنبياء » آية ٩٠
(٣) « سورة المزمل » آية : ٢٠
(٤) طوبى : الخير الكثير
(٥) « سورة الكهف » آية ٤٦

ويقول :

« فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[(١)] » .

ويقول :

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ[(٢)] » .

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[في القلب لمتان : لمة من الملك . إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه . وليحمد الله .

ولمة من العدو ، إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك ، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تلا قوله تعالى :

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »[(٣)] .

---

(١) « سورة الشورى » آية ٣٦ .
(٢) « سورة المؤمنون » الآيات : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
(٣) سورة البقرة آية ٢٦٨

٢ — معنى الخير :

والخير الذى ندب الله إليه ، ينتظم كل بر ، ويشمل كل عمل صالح .

فطاعة الله خير . . .

وممارسة الفضائل خير . .

والإخلاص والنية الطيبة خير . .

والإحسان إلى الناس خير . . .

وبر ذوى القربى خير . . .

والقول الجميل خير . . .

وكل عمل ينهض بالفرد ويرق بالجماعة فهو خير . . .

والفطر السليمة تهتدى إلى الخير ، وتشعر به ، وتنجذب إليه، وقلما تحتاج إلى من يبصرها به ، أو يدلها عليه ، إذ الخير هو الكمال الذى تنشده وتسعد به .

ومن أجل هذا تأتى الدعوة إلى الخير فى كتاب الله ، وفى سنة نبيه دون أن تعرّف ماهيته ، وتضع له الحدود التى تكشف عن معالمه .

٣ — نماذج وأمثلة منه :

ومع ذلك فإن الإسلام يرشد إلى ضروب منه ، ليلفت الأنظار إليها ، ويوجه العناية بها .

فالاستزادة من العلم والحكمة خير .

يقول الله سبحانه :

« يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ[1] » .

---

(١) «سورة البقرة» آية ٢٦٩

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
[مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَيُلْهِمْه رشده[١]] .
والدلالة على الخير، وإرشاد الإنسان غيره إلى الحق، لا يقل أهمية عن ممارسة الخير والنهوض به .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :
[من دل على خير فله مثل أجر فاعله[٢]] .

و يقول :
[لأن يهدىَ الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمُر النَّعَمْ[٣]] .
والطيبة ، والسماحة ، والرحمة ، والرفق ، والكلمة الطيبة ، كل أولئك مظاهر إرادة الله الخير للمتصف بها .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :
[إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد الله به خيراً مَنَحَهُ خُلقاً حسناً ، وإذا أراد الله به سوءاً منحه خلقاً سيئاً[٤]] .

وعن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[من أُعطِى حظه من الرفق ، فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حُرِم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير] .

وكسب الرجل وعمله بيده خير، ومواساة غيره خير . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
[ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبىّ الله داود كان يأكل من عمل يده[٥]] .

---

(١) رواه البخارى (٢) رواه مسلم
(٣) النعم هى الإبل أى الحمر وهى أفضل أموال العرب ويضرب المثل بها فى نفاسة الشىء.
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط (٥) رواه البخارى

وقال :

[على كل مسلم صدقة .

فقال رجل : أرأيت إن لم يجد ؟

قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق .

قال : أرأيت إن لم يستطع ؟

قال : يعين ذا الحاجة الملهوف[١] .

قال : أرأيت إن لم يستطع ؟

قال : يأمر بالمعروف .

قال : أرأيت إن لم يفعل ؟

قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة[٢]] .

وقال :

[اليد العليا خير من اليد السفلى] .

وقال :

[لا يغرس مسلم غرساً ، ولا يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان ، ولا دابة ، ولا شيء إلا كانت له صدقة[٣]] .

وقال :

[اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة] .

وأى عمل لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه ، فهو من أعلى ضروب الخير .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الملهوف : المظلوم والعاجز الذى يستغيث ليدفع الضرر عن نفسه

(٢) أى هذه الخصلة (٣) رواه البخارى ومسلم

[لَغَدْوَة[1] فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها] .

وروى أبو سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[من خير معايش الناس لهم :

رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله . يطير على متنه[2] كلما سمع هيعة[3] ، أو فزعة[4] طار عليه يبتغى القتل أو الموت مظانه . .

ورجل فى غُنَيْمَة فى رأس شَعَفَة من هذه الشعف ، أو بطن وادٍ من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين[5] . ليس من الناس إلا فى خير[6]] .

والله سبحانه يحاسب المرء على قدر الذرة فى الخير والشر .

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[7] » .

وفى الموطأ :

[أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين ، وبين يديها عنب .

فقالت لإنسان : خذ حبة فأعطه إياها .

فجعل ينظر إليها ويعجب .

فقالت : أتعجب ! كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟] .

وروى عن سعد بن أبى وقاص أنه تصدق بتمرتين ، فقبض السائل يده ، فقال للسائل : ويقبل الله منا مثاقيل الذر ، وفى التمرتين مثاقيل ذر كثيرة .

---

(١) الغدوة : الذهاب أول النهار . والروحة : الذهاب آخره ، وسبيل الله الطريق الموصل إلى مرضاته وهو الجهاد

(٢) متنه : ظهره (٣) هيعة الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو.

(٤) فزعة : الفزع فى الأصل الخوف فوضع موضع الإغاثة والنصر لأن من شأنه الإغاثة والدفع عن الحريم والشعفة رأس الجبل (٥) اليقين : الموت (٦) رواه مسلم

(٧) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ ، ٨

وروى معمر عن زيد بن أسلم : أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

[علمني مما علمك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه . فعلمه « إذا زلزلت » حتى إذا بلغ « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » قال : حسبي . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دعوه فإنه قد فقه] .

وكل معروف يقدم إلى الناس ، فهو مما يُرضي الله كبر أو صغر ، حتى المصافحة ، وبشاشة الوجه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[لا تحقرن من المعروف شيئاً . ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق[1]] .

وقال :

[إذا التقى المسلمان وتصافحا تحاتت عنهما ذنوبهما كما يتحات عن الشجرة ورقها] .

وكل أذى يماط عن طريق المسلمين ، فهو من البر الموجب للمغفرة .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

[بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق ، فأخره فشكر الله له فغفر له[2]] .

وقال :

[عُرِضت عليّ أعمال أمتي حسنُها وسيئُها ، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق[3]] .

والانتقال إلى المسجد ، والخطوات إلى الصلاة ، مذخور عند الله لا يضيع منها شيء .

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه البخاري . (٣) رواه مسلم ، ويماط : يزال .

فعن أبى المنذر أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه قال :

[كان رجل لا أعلم أبعد من المسجد منه ، وكان لا تخطئه صلاة فقيل له أو فقلت له :

لو اشتريت حماراً تركبه فى الظلماء ، وفى الرمضاء .

فقال : مايسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد .

إنى أريد أن يُكتب لى ممشاى إلى المسجد ، ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قد جمع الله لك ذلك كله[1]] .

ومن أنواع الخير ما ذكره صلوات الله وسلامه عليه فى قوله :

[طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره

طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله[2]]

٤ — اعتياده:

والقيام بالخير ، والنهوض بأعبائه ، يحتاج إلى ترويض وتعويد ، حتى تألفه النفس ، ويسهل عليها ممارسته .

وإن المران على الخير منذ الصغر ، وأخذ النشء به ، مما يرسى دعائمه ويثبت قوائمه .

وقد أمر الإسلام أن نربى الأبناء على الفضائل الإسلامية ، ونعودهم على أداء الواجبات الدينية منذ الحداثة ، حتى ينشأوا وقد اصطبغوا بصبغة الإسلام، وانطبعوا به .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الطبرانى وحسنه ابن عبد البر .

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوّده أبوه

٥ — المسارعة إليه :

والمبادرة إلى الخير ، والمسابقة إليه ، مما يندب إليه الإسلام ، ويرغب فيه ، حتى يكون رصيداً يسمو بالإنسان ، ويصل به إلى أقصى درجات السمو والرفعة.

والشمس لاتنتظر أحداً، والزمن يمضى سريعاً، والوقت هو الفرصة الذهبية التى وهبها الله للإنسان ليعمرها بالخير والصلاح .

يقول عز وجل :

« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً[١] » .

فإذا فرط فى النهوض بالعمل الصالح ، وقصر فى أداء الواجب فقد عرض نفسه لغبن فاحش ، وخسارة لاتعوض أبداً .

« وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ[٢] » .

وفى الحديث الصحيح :

[نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ[٣]] .

وقد تعرض الموانع الصارفة للإنسان عن ممارسة الخير ، وتمر فتن كثيرة تحول بينه وبين القصد إليه .

---

(١) سورة الملك آية ٢ (٢) سورة العصر (٣) رواه البخارى عن ابن عباس.

ومن واجب المرء أن يبادر هذه الموانع . ويسبق هذه الفتن ، متى تهيأت له الأسباب ، وتفتحت أمامه الأبواب .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ، ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا (١)] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[بادروا بالأعمال سبعاً :

هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً

أو غنى مُطغياً ..

أو مرضاً مفسداً ..

أو هرماً مُفْنِداً ..

أو موتاً مُجْهِزاً ..

أو الدجال ..

فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر (٢)] .

وخير الأعمال ما قام به المرء وهو فى عافية من البدن ، ووفرة من المال ، وإقبال من الدنيا ، وأمل فى الحياة ، فإن ذلك دليل إيثار ما عند الله ، ومظهر الوعى الدينى ويقظته .

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه الترمذى .

[سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح شحيح : تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل ، حتى إذا بلغتْ الحلقوم[1] قلت : لفلان كذا . ولفلان كذا[2] وقد كان لفلان كذا[3]] .

٦ — صورة من حياة الرسول وصحابته :

وإن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، كان فى نفسه مثلا أعلى فى المسارعة إلى الخير .

عن أبى سَرْوعة رضى الله عنه قال :

[صليت وراء النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة العصر ، فسلم ، ثم قام مسرعاً ، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته !

فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته . قال : ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسنى . فأمرت بقسمته[4]] .

وكان أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ على نهجه فلم يحجموا عن مكرمة ، أو يقصروا عن غاية .

كانوا يتسابقون إلى الموت فى سبيل الله راضين بتلك الشهادة .

[قال : رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد .

أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟

---

(١) أى بلغت الروح الحلقوم وذلك عند الاحتضار .

(٢) المقصود أنه يوصى فى هذا الحالة بالخير حيث لا ينفعه إلا هو. (٣) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البخارى

قال : فى الجنة .

فألقى تمرات كن فى يده ثم قاتل حتى قتل] .

[وفى غزوة تبوك تخلف أبو خيثمة ،فلم يخرج مع الجيش ، وكان له زوجتان، فلما رأى تخلفه وتقاعده قال : رسول الله فى الحر ، وأبو خيثمة فى ظل ظليل ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ! !

ماهذا بالنصف . . ؟

والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيئا لى زاداً.

ثم ارتحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، وخرج فى طلب رسول الله حتى أدركه].

فاستقم كما أمرت

إن الله سبحانه رسم للإنسان منهجاً يسير عليه ، وخطة يلتزمها في سلوكه مع الله ، ومع غيره :

وهذا المنهج يتلخص في أمرين :

(ا) صحة الإيمان بالغيب كله ، كما جاء في القرآن بلا تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا تأويل .

(ب) التزام كتاب الله ، وما فسرته به سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً .

ومتابعة هذ المنهج ، وترسم هذه الخطة ، هو المعبر عنه بالاستقامة ..

وقد أشار الله سبحانه إلى هذا في قوله الكريم :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1] » .

أي أن صراط الله وطريقه الذي جعله منهجاً للسلوك ـ مستقيم لاعوج فيه وأن على الناس أن يتبعوا هذا الطريق السوي . وأنهم إذا اتبعوه وساروا عليه ، أمنوا من الزيغ والضلال في الدنيا ، وسعدوا برضوان الله ونعيمه في الآخرة .

وإذا انحرفوا عن صراط الله ، واتخذوا طرقاً أخرى ابتدعوها من تلقاء

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٥٣

أنفسهم تفرقوا عن سبيل الله وحادوا عنه ، واستحقوا الضلال ، وتعرضوا للنكال ، بإعراضهم عن هداية الله .

وأن هذه وصاية الله لعباده ، لتحصل لهم ملكة التقوى .

[وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه حط خطاً مستقيما ، وخط عن يمينه خطوطاً ، وعن شماله خطوطاً . ثم قال مشيراً إلى الخط المستقيم :

هذا سبيل الله .

وقال مشيراً إلى الخطوط التى عن يمينه وشماله :

وهذه سُبُلٌ . علىَ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه .

ثم قرأ صلى الله عليه وسلم « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه. الآية[1] .. »

وروى أحمد ، عن النواس بن سمعان الأنصارى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما . وعلى جنبتى[2] الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة . وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول :

ياأيها الناس : ادخلوا الصراط جميعاً ولا تنفرجوا .

وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك[3] لاتفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه[4] .

والصراط : الإسلام . . .

والسوران[5] : حدود الله تعالى ...

---

(١) رواه الدارمى أبو محمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود .

(٢) جنبتى الصراط : جانبا الصراط .

(٣) ويحك : كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع فى هلكة لا يستحقها . وقد تقال بمعنى المدح والتعجب .

(٤) تلجه . تدخله .   (٥) السوران : الحاجزان بين الحلال والحرام .

والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى[٢] ...

وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله[٢] عز وجل . والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم[٣]] .

٢ — أثر الاستقامة فى حياة الإنسان :

والاستقامة من شأنها أن ترقى بالإنسان ، وتصل به إلى الذروة من الكمال. وتحفظ عقله وقلبه من أن يتطرق إليهما الفساد ، وتصون نفسه من التردى فى حمأة الرذيلة . . .

وإذا سيطرت الرغبة فى الاستقامة على جماعة ، وسادت بينهم ، حسنت أحوالهم واستقامت أمورهم ، وعمهم الأمن والسلام .

وإذا ضعفت الرغبة فى الاستقامة ، ضعف الإقبال على الخير ، وعظم التورط فى الإثم ، وفشا المنكر ، وتعرض الفرد والجماعة للانحراف ، والخطايا ، والانحلال . الذى يعقبه سلب الحرية والاستقلال .

لهذا اهتم الإسلام بها اهتماماً بالغاً ، وأولاها عناية خاصة .

٣ — دعوة الإسلام إلى الاستقامة :

وقد دعا الإسلام إلى الاستقامة وجعلها أعلى المقامات ، حتى قال العلماء : « إن الاستقامة هى عين الكرامة » .

وأسلوبه فى الدعوة إليها أسلوب يستهوى الأفئدة ، ويؤثر فى النفوس ، ويحملها على التزامها ، والتعلق بأهدابها .

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا . وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ

(١) محارم الله تعالى : ما حرمه الله .
(٢) لأنه يأمر بالمعروف . وينهى عن المنكر .
(٣) ما أودعه الله فى القلب من الإيمان المانع من الحرام .

أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ . وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [(١)] » .

أى إن الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، واستقاموا على الطريق الذى رسمه لعباده ، فإن الملائكة تنزل عليهم عند الموت ، وتقول لهم :

لاتخافوا مما أمامكم من أهوال القبر وعذاب الآخرة ، ولا تحزنوا على ماتركتم وراءكم من أموال وأولاد ، وأبشروا بالجنة التى وعدكم الله بها . .

وإن هؤلاء الذين قالوا ربنا الله واستقاموا ، يتولاهم الله برحمته ورضاه ، كلما التزموا الاستقامة ، وساروا على الجادة دون اعوجاج أو انحراف ، ولهم عند الله جميع الرغبات التى تشتهيها أنفسهم ، ولهم جميع ما يطلبون . . .

وأن ذلك أعده الله لهم لأنه غفور يتجاوز عن سيئاتهم ، ويدخلهم برحمته فى عباده الصالحين .

وعن سفيان بن عبد الله قال : قلت : يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال :

[قل : آمنت بالله ثم استقم [(٢)]] .

والله يقول :

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ . وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [(٣)] » .

أى أن الإستقامة لاتتحقق إلا إذا التزم المرء ما أمر الله به ...

وإن النبى صلى الله عليه وسلم مطالب من الله بأن يلتزم الاستقامة هو ومن

---

(١) سورة فصلت الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

(٢) رواه مسلم . (٣) سورة هود آية : ١١٢

ـه معه ممن تاب عن الشرك ، ورجع إلى الله ، واتبع النبى الأمى ، وأن المؤمنين لا يحل لهم تجاوز ما أمر الله به غلواً فى الدين ، فإن ذلك طغيان .

والله مطلع على أعمال الناس، يبصرها ويراها، فيجازى عليها الجزاء العادل، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ...

وبلغ من الاهتمام بالاستقامة أن الله سبحانه هو الذى يتولى الهداية إليها .

« وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1] » .

وأنه أنزل كتابه لتحقيق هذه الغاية .

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ[2] » .

وأن نبيه صلى الله عليه وسلم بيّنها بسلوكه أوضح بيان .

« وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ[3] » .

والمسلمون فى صلواتهم ، ودعواتهم ، يهتفون من أعماق قلوبهم ، فى كل يوم وليلة :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » .

هذه هى دعوة الإسلام إلى الاستقامة ، ليحوّل حياة الإنسان إلى حياة أفضل . حياة كلها النظافة ، والطهر ، والأدب ، والعفاف .

---

(١) سورة الحج آية : ٥٤

(٢) سورة إبراهيم الآيتان : ٢ ، ٣ (٣) سورة الشورى الآيتان : ٥١ ، ٥٢

وهى الحياة الجديرة بكرامة الإنسان ، الذى شرفه الله ، وأعلى من قدره ، وفضله على كثير ممن خلقه .

وإذا كان فى الأرض بقايا من هذه الحياة النظيفة ، فمرجعها إلى هذا الدين القيم الذى جعله الله سراجاً للعقول ، وزكاة للنفوس ، وطهارة للقلوب ، وحياة للضمائر ، وسمواً للأرواح .

« قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي . وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1] » .

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠٨

أحسن كما أحسن الله إليك

١ — معنى الإحسان :

الإحسان ينتظم معنيين :

(ا) الإتقان ، والإجادة . يقال . حسن فلان عمله إذا أتقنه وأجاده ومنه قول الله تعالى :

« الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ[1] » .

(ب) الإنعام على الغير . يقال: أحسن فلان ،إذا تفضل عليه وأبره ، ومنه قول الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

٢ — دعوة الإسلام إليه :

والإسلام دعا إلى الإحسان ، وندب إليه . لأن ممارسته هى أنجع الوسائل لتثبيت الفضائل ، وتعميق جذورها فى النفس ، وليرتفع المستوى الإنسانى بصرف القوى فى ترقية الحياة ، وإفاضة البر على من هم فى حاجة إلى البر والرحمة .

فالمحسنون فى نظر الإسلام أحباب الله، يكلؤهم بعنايته ، ورحمته لا تفارقهم طرفة عين :

« وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[2] » .

« إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[3] » .

---

(١) سورة السجدة آية : ٧

(٢) سورة البقرة آية : ١٩٥

(٣) سورة الأعراف آية : ٥٦

ومنفعة الإحسان وفائدته تعود على المحسن نفسه ، فالله سبحانه يبادله بالإحسان إحساناً :

« هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ(١) » .

كما أن المحسن يجد من تقدير الناس له، وثقتهم به مايرفع قدره، ويعلي شأنه.

« إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ(٢) » .

وصلة الإنسان بالله مهما عظمت ، لا يعترف بها إلا إذا صحبها الإحسان .

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى(٣) » .

أى أن من أخلص لله ، وأسلم نفسه إليه ـ وهو على طريق الإحسان ـ فقد تعلق بأسباب النجاة ، وتمت له الحظوة عند الله .

وجزاء الإحسان يعجل الله به فى الدنيا .

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ(٤) » .

وفى الآخرة يضاعفه أضعافاً مضاعفة ، فيأتى المحسن ربه آمناً يوم القيامة :

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا(٥) » .

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ(٦) » .

٣ـ اتساع نطاق الإحسان :

١ـ والإحسان يتناول كل شأن من الشئون ، وينتظم كل عمل من الأعمال: يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الرحمن آية : ٦٠
(٢) سورة الإسراء آية ٧٠
(٣) سورة لقمان آية : ٢٢
(٤) سورة النحل آية : ٣٠
(٥) سورة الأنعام آية : ٦٠
(٦) سورة النمل آية : ٨٩

[إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة . وليُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته (١)] .

أى أن الإحسان مطلوب فى كل شيء ، حتى فى حالة ما إذا أراد الإنسان أن يذبح ذبيحة ، فإنه لاينبغى له أن يتخلى من فضيلة الإحسان ، وعليه أن يسوقها إلى الموت سوقاً رفيقاً . ويحد السكين ليجهز عليها فى سرعة ، فيريحها ويخفف آلامها .

٢ — والله سبحانه ماخلق الإنسان وزوّده بالقوى والقُدَر . إلا لينشط ويبدع ويأتى بجلائل الأعمال . فإذا قصر عن هذه الغاية ، وبدد قواه فى غير ما خلقت له كان جاحداً بهذه النعمة ، وناسياً فضل الله عليه :

« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) » .

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٣) » .

٣ — ومن الإحسان أن يؤدى المرء عبادته فى يقظة تامة . ونشاط كامل . سأل جبريل عليه السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ؟ فقال له :

[أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٤)] .

٤ — والإحسان الذى هو من أخص صفات الأبرار ، مظهر إحساسهم ، يتجلى فى قيام جزء من الليل فى مناجاة الله ، وطلب الغفران منه ، ومحاسبة النفس ، والتطهر من الإثم . كما يتجلى فى إعطاء الفقير حقه رحمةً به ، وحنوا عليه ، ومعاونة له على شئون الحياة .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ

---

(١) رواه مسلم
(٢) سورة الملك آية : ٢
(٣) سورة الكهف آية : ٧
(٤) رواه البخارى .

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِم حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ[١] » .

٤ — واختيار منهج قويم للحياة ، واتخاذ مثل أعلى يسعى الإنسان لتحقيقه ـ من الإحسان .

« فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ[٢] » .

٦ — والمجاهدة بالنفس والمال من أجل استقرار المبادىء الكريمة، والتمكين لكلمة الله فى الأرض ـ من الإحسان .

«وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا. وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[٣] ».

٧ — ومن خير ضروب الإحسان انتقاء العبارات الحسنة ، والألفاظ النظيفة . والكلمات المهذبة فى مخاطبة الناس ، والتحدث إليهم ، فإن ذلك يوثق الصلات ويقوى الروابط ، ويبعد عن نزغات الشياطين ،التى تفسد العلاقات ، وتقطع ما أمر الله به أن يوصل .

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ . إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً[٤] » .

٨ — والإحسان إلى المسىء لا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس الكبيرة، الذين يريدون وجه الله ، فتتغلب فى نفوسهم دواعى الحلم على نوازع الجهل والسفه .

« وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

---

(١) سورة الذاريات : من الآية ١٥ إلى ١٩
(٢) سورة الزمر آية ٨١ ، ١٨
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩
(٤) سورة الأسراء آية ٥٣

فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[(١)] » .

٩ — ورعاية حقوق الوالدين ، والأقربين والجيران ، والأصدقاء ، والفقراء ، والخدم ، من أعظم ضروب الإحسان ، وقد قرنها الله بعبادته ، ليلفت النظر إلى هذه الرعاية ، وليؤكد هذه الحقوق . .

واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى . والجار الجنب . والصاحب بالجنب وابن السبيل[(٢)] » .

وذى القربى : هم الأقرباء . .

والجار ذى القربى : الجار المجاور ...

والجار الجنب : الجار البعيد ...

والصاحب بالجنب : الزوجة والصديق . والرفيق فى العمل ، وفى السفر .

وابن السبيل : المسافر المنقطع عن أهله ...

فهؤلاء يجب أن يعمهم الإحسان ليسود الجميع المودة والمحبة ، ويظللهم الأمن والسلام .

وهكذا إذا تتبعنا نواحى الإحسان وضروبه نجد معناه واسعاً . وأن الله يريد للناس أن يعيشوا فى ظله لينعموا بالعافية ، ويسعدوا بالحياة ، ويصلوا إلى المثل الأعلى ، ويحققوا رسالتهم كخلفاء عن الله فى الأرض . . وهذا هو الدين الحق الذى يتقبله الله ولا يتقبل غيره .

---

(١) سورة فصلت آية : ٣٥ (٢) سورة النساء آية: ٣٦

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ[1] »

« وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[2] » .

ولقد أخذ سلفنا بهذه الفضيلة . فإذا هم أئمة الهدى ، وقادة الأمم ، وسادة الشعوب ، وإذا هم يبزون فى كل ميدان ويبرزون فى كل ناحية ، ويسبقون فى كل نشاط حضارى ، ويتفوقون تفوقاً لم يسبقوا إليه ، ولم يلحقوا فيه .

« وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[3] » .

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٥
(٤) سورة البقرة آية : ١١١
(٣) سوره الزمر آية ٢٤ .

الحياء شعبة من الايمان

إن الحياء من أقوى البواعث على الاتصاف بما هو حسن ، واجتناب ماهو قبيح .

وإذا تخلق به المرء سارع إلى مكارم الأخلاق ، ونأى عن رذائل الصفات ، وكان سلوكه سلوكا نظيفاً مهذباً.

فلا يكذب فى القول ، ولا تطاوعه نفسه فى اقتراف الإثم ، ولا تطارده الميول الفاسدة ، ولا يستبد به الهوى ، أو تتغلب عليه نزغات الشيطان .

والحياء بهذا المعنى، هو الذى عناه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو يحض صحابته على الاستمساك بعروته ـ بقوله :

[استح من الله استحياءك من ذى الهيبة من قومك] .

والاستحياء من الله يبنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

[استحيوا من الله حق الحياء .

قالوا : يانبى الله إننا لنستحى والحمد لله .

قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء :

أن تحفظ الرأس وماوعى .

وتحفظ البطن وما حوى .

وتذكر الموت والبلى . .

ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء [1]] .

---

(١) رواه الترمذى والطبرانى .

فالحديث يشير إلى أن الحياء ليس هو التغير والانكسار الذى يعترى الإنسان من خوف ما يذم عليه ، ولكن الحياء يتمثل فى أمور :

١ — حفظ الحواس من السمع والبصر واللسان من أن تأتى منكراً أو تفعل ماتذم عليه . . .

٢ — حفظ البطن من الشراهة ، وكثرة تناول الطعام ، وحفظها من أكل ماحرم الله ، وحفظ الفرج من الزنا والرفث ..

٣ — ترك ماحرم الله من زينة الدنيا . .

فهذا هو الحياء الكامل الذى يريده الله للناس .

والإنسان إذا تحلى به يبلغ نهاية الكمال ، وإذا تخلى عنه سارع إلى الشر وسمج وجهه ، فلا يبالى بالشتم ولا الصخب ولا الغدر ، ولا بارتكاب أى محظور ومن ثم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ماشئت[1]] .

أى أن مما عرفه الناس من مواريث النبوة أن المرء إذا تجرد عن الحياء فإنه أهل لارتكاب كل منكر وشر ، وكل ظلم وبغى ، لصفاقة وجهه ، وجرأته على هتك الحرمات .

وروى عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه

---

(١) رواه البخارى ومسلم وهذا هو الذى نظمه الشاعر فى قوله :

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستحى فافعل ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء

الحياء لم تلقه[1] إلا مقيتا ممقتاً[2] ، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً ، نزعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً ، فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعناً[3] ، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعناً نزعت منه ربقة[4] الاسلام[5]] .

ولما فى هذا الخلق من الآثار الطيبة فى حياة الانسان ـ ينظر الاسلام إليه على أنه فى طليعة الأخلاق الإسلامية .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن لـكل ديناً خُلقاً ، وخُلقُ الإسلام الحياء[6]] .

والتجرد عنه تجرد عن الدين نفسه ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[الحياء شعبة من الإيمان ولا إيمان لمن لا حياء له] .

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل من الأنصار ، وهو يعظ أخاه فى الحياء ـ كأنه يقول : إن الحياء قد أضرّ بك .

فقال :

[دعه فإن الحياء من الإيمان[7]] .

وعن عمران بن الحصين رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[الحياء لا يأتى إلا بخير[8]] .

وفى راوية [الحياء خير كله] .

---

(١) تلقه : تجده . (٢) مقيتا ممقتا : بغيضا مذموما . (٣) رجيما ملعنا : مطرودا من الخير بعيداً عن رحمة الله . (٤) الربقة : العروة (٥) رواه ابن ماجه .

(٦) رواه مالك فى الموطأ مرسلا ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس ومن حديث أنس .

(٧) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٨) رواه البخارى ومسلم .

وهو سبيل إلى جنة الله ورضوانه . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ، والبَذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار[١]] .

أى أن البذاء والوقاحة ، وفحش القول ـ من الجفاء ، وهو قسوة القلب وذلك مُفْضٍ بصاحبه إلى النار ...

والحياء خير ما يتحلى به المرء من زينة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:
[ما كان الفحش فى شىء إلا شانه ، وما كان الحياء فى شىء إلا زانه[٢]].
والحياء من صفات الله سبحانه : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
[إن الله حيي كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردّهما صفراً خائبتين[٣]] .

وفى حديث آخر :

[إن الله حَيِيٌّ سِتِّيرٌ ، يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر].
وهو من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم .
[فعن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كان أشد حياء من العذراء فى خدرها فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه[٤]] .
ودخل أبو بكر وعمر على رسول الله ، وكان جالساً كاشفاً عن فخذه ، فلما استأذن عثمان أرخى عليه ثيابه ، فسألته عائشة عن سبب ذلك فقال :
[ياعائشة ألا أستحى من رجل والله إن الملائكة لتستحى منه[٥]] .
ولقد كان من نتائج الإعراض عن هذه التعاليم ـ أن تفشى فى المجتمع الاستهتار

---

(١) رواه أحمد والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) رواه أحمد عن يعلى بن أمية .
(٣) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وقال : حسن غريب .
(٤) رواه أبو داود .

بالقيم الرفيعة ، والاستهانة بالتقاليد الحسنة ، والتجرد من الفضائل الموروثة ، وانتشرت الرذائل ، وأخذت طريقها فى إفساد القلوب والعقول . فمن مناظر التبرج ، وعرض مفاتن الجسد ، إلى أغان رخيصة ، مبتذلة ، إلى كتب جنسية مثيرة، إلى قصص عابث، إلى صور فاضحة تنشر فى الصحف والمجلات ، إلى أفلام سينمائية خليعة تغرى بالفسق والفجور ، إلى كثير من أمثال هذه النقائص التى تسلب الإنسان الحياء ، وتزين له الشر وتغمسه فى الشهوات والآثام .

ويجب الضرب على أيدى هؤلاء العابثين، ووضع خطة محكمة لتطهير المجتمع المسلم من هذه السيئات الموبقة ، وتخليصه مما ران عليه من دعاة الاباحية والتحلل.

كما يجب على الآباء والمربين أن يأخذوا أبناءهم بهذا الخلق ، ويرشدوهم إلى ما ينبغى فعله ، وما ينبغى تركه من الأقوال والأفعال .

وعليهم أن يتخيروا لهم الأصحاب والأصدقاء من ذوى الأخلاق الحسنة ، ويجنبوهم رفقاء السوء ، ومخالطة التافهين والسفلة من الناس ، وانتقاء الكتب الصالحة واختيار القصص التى لها تأثير خاص فى التوجيه الحسن ، الذى له شأنه فى اكتساب هذا الخلق الكريم .

وبمثل هذه الأساليب ينشأ الأبناء النشأة التى تجعل منهم أفراداً صالحين للحياة ، وعاملين للخير والنجاح .

ومما تجب ملاحظته :

أن على المربى أن يكون حكيما ، فلا يبالغ فى أخذ الناشئين بهذا الخلق حتى لا يصل إلى حد الخجل ، فإن ذلك مفض إلى ضعف الشخصية ، وصرف النفس عن ارتياد معالى الأمور ، واقتحام المشاق ، والجرأة فى الحق .

ففى البخارى وغيره عن عائشة أنها قالت :

« نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » .

وبهذه التربية الحكيمة تصل النفس إلى أسمى ما فيها من سمو .

فليؤد الذي أؤتمن أمانته

١ - أهمية التحلي بخلق الأمانة :

الأمانة فضيلة من الفضائل التى لا يستغنى عنها الفرد فى معركة الحياة ؛ ليصل إلى غاياته المرجوة منها ، ويحقق آماله المنشودة فيها .

كما أن الجماعة لا يمكن أن تُرسى قواعدها على دعائم ثابتة ، ولا تشيد بناء حياتها المتين ، إلا إذا اتصفت بها ، وحافظت عليها .

وإننا لنشاهد الفرق واضحاً بين رجلين :

أمين ، وخائن :

فالأمين موضع ثقة الناس واحترامهم ، والخائن مناط سخطهم واحتقارهم .

ونتيجة ذلك أن ينجح الأول، بينما يخفق الثانى .

وقد أدركت الأمم أثر التحلى بهذا الخلق فى حياتها ، فعملت على تنميته ، والاتصاف به ، فبلغت بذلك شأواً بعيداً فى الحضارة والرقى.

يقول السيد جمال الدين الأفغانى فى ذلك :

من المعلوم الجلى،أن بقاء النوع الإنسانى قائم بالمعاملات والمعاوضات فى منافع الأعمال .

وروح المعاملة والمعاوضة إنما هى الأمانة .

فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صِلات المعاملة . .

وانبترت حبال المعاوضة ، فاختل نظام المعيشة ، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل .

ثم من البيِّن أن الأمم فى رفاهاتها ، والشعوب فى راحتها ، وانتظام أمر معيشتها ،محتاجة إلى الحكومة بأى نوع من أنواعها :

إما جمهورية . . .

أو ملكية مشروطة .

أو ملكية مقيدة . .

والحكومة فى أى صورها لا تقوم إلا برجال يؤدون ضروباً من الأعمال .. فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الأجانب عليها، ويدافعون الوالج فى ثغورها ، وحفظة فى داخل البلاد يأخذون على أيدى السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ، ويميل إلى الاعتداء ، من فتك ، أو سلب ، أو نحوها .

ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون ، يجلسون على مِنصات الأحكام ، للفصل فى الخصومات ، والحكم فى المنازعات .

ومنهم أهل جباية الأموال ، يحصّلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج، مع مراعاة قانونها فى ذلك . ثم يستحفظون مايحصلون فى خزائن المملكة، وهى خزائن الرعايا فى الحقيقة ، وإن كانت مفاتيحها فى أيدى خزنتها .

ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال فى منافع العامة للرعية ، مع مراعاة الاقتصاد والحكمة ، كإنشاء المدارس والمكاتب، وتمهيد الطرق وبناء القناطر ، وإقامة الجسور ، وإعداد المستشفيات ، ويؤدى أرزاق العاملين فى شئون الحكومة ، من الحراس ، والحفظة ، وقضاة العدل ، وغيرهم حسبما عين لهم .

وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالهم، إنما تؤدى كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة ، فإن خربت أمانة أولئك الرجال، وهم : أركان الدولة، سقط بناء السلطة وسلب الأمن ، وضاعت حقوق المحكومين ، وفشا

فيهم القتل والتناهب ، ووعرت طرق التجارة ، وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة ، وخوت خزائن الحكومة ، وعميت على الدولة سبل النجاح .

فإن حز بها أمر سدت عليها نوافذ النجاة ،ولا ريب أن قوماً يساسون بحكومة خائنة . إما أن ينقرضوا بالفساد ، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم ، يسومونهم خسفاً ، ويستبدون فيهم عسفاً ، فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال .

ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين ، إنما يكون باتحاد العاملين ، والتئام بعضها ببعض حتى يكون كل منهم لبِنْيَة قومه كالعضو للبدن . ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم ، وعمت بالحكم أفرادهم .

فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان، ومستقر أساس الحكومات ، وباسط ظلال الأمن والراحة ، ورافع أبنية العز والسلطان ؛ وروح العدالة وجسدها ، ولا يكون شيء من ذلك بدونها .

٢— الدعوة إليها :

لهذا كله دعا الإسلام إلى الأمانة ، وحبب فيها ، وأمر بها ، فقال :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا[1] » .

« فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ[2] » .

وهى إحدى صفات الإبرار .

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[3] » .

---

(١) النساء آية ٥٨ . (٢) البقرة آية ٢٨٣ .
(٣) المؤمنون آية : ٨

وهى أحد عناصر تـكامل الشخصية .

عن عُبادة بن الصامت : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمنْ لـكم الجنة :

اصدقوا إذا حدثتم . . .

وأوفوا إذا وعدتم . . .

وأدوا إذا اؤتمنتم . . .

وغضوا أبصاركم . . .

واحفظوا فروجكم . . .

وكفوا أيديكم(١)] .

والتجرد عن هذه الفضيلة يسلب الإنسان جميع الفضائل ، وينظمه فى عداد المنافقين .

عن على رضى الله عنه قال :

كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلع علينا رجل من أهل العالية ، فقال :

يارسول الله

أخبرنى بأشد شىء فى هذا الدين وأليه ؟

فقال :

[أليَنه(٢) شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقى .

(٢) ألينه . المراد أن أسهل ما فى الدين من عمل إنما هو النطق بالشهادتين .

وأشده يا أخا العالية الأمانة . إنه لا دين لمن لا أمانة له ، ولا صلاة له ، ولا زكاة له[١]] .

وعن أنس رضى الله عنه قال :

ماخطبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة إلا قال :

[لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لاعهد له [٢]] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان[٣]] .

وجاء فى رواية أخرى لمسلم :

[وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم]

وعن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال :

[أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها :

إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر[٤]] .

ومن ثم كانت الشهادة والموت فى سبيل الله ـ وهما أرفع الأعمال عند الله ـ لا يكفران إثم الخيانة .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

---

(١) رواه البزار .

(٢) رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه البخارى ومسلم

[القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانةَ فى الصلاة ، والأمانةَ فى الصوم . والأمانةَ فى الحديث ، وأشد ذلك الودائع[١]] .

وليس للغادر إلا أن يشهر به على رؤوس الخلائق يوم الجزاء .

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ قال :

[إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادر لواء . فقيل : هذه غَدرة فلان ابن فلان[٢]] .

وعن عمرو بن الحمق، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول :

[أيما رجل أمَّن رجلا على دمه ، ثم قتله ـ فأنا من القاتل برىء ، وإن كان المقتول كافراً[٣]] .

وقال ابن ماجه فى رواية : [فإنه يحمل لواء غدرٍ يوم القيامة] .

لهذا كله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستعيذ بالله من خلق الغدر .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة[٤]] .

٣ — أنواع مجال الأمانة :

والأمانة كل ما يجب حفظه وتأديته إلى أهله .

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية .

(٢) رواه مسلم وغيره

(٣) رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه

(٤) أبو داود والنسائى وابن ماجه .

فهى كلمة واسعة المدلول تتسع لجميع ... .

فالتزام الإيمان وتعهده بأسباب النماء والبقاء أمانة ، وإخلاص العبادة لله أمانة ، وإحسان المعاملة مع الأفراد والجماعات أمانة ، وإعطاء كل ذى حق حقه أمانة ، وقد جاءت النصوص وفيها بيان ذلك .

ففى مجال الإيمان والعبادة يقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً[1] » .

وأى تقصير فى النهوض بهذه التبعة خيانة لله ولدينه .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[2] » .

وفى مجال الحكم ، يقول الله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا[3] » .

وقد روى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قلت : يارسول الله ألا تستعملنى ؟

فضرب بيده على منكبى ، ثم قال :

[يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها] .

---

(١) الأحزاب آية : ٧٢

(٢) الأنفال آية : ٧٧ . وخيانة الله : تتحقق بترك الفرائض . والتورط فى الآثام . وخيانة الرسول : تتحقق بإهمال سنته وتعاليمه . وخيانة الأمانات : تتحقق بإهمال مايجب حفظه ورده إلى مستحقه .

(٣) النساء : الآية ٥٨

وأمانة الحكم تقتضى إسناد المناصب العامة إلى الأمناء الأقوياء، والأكفاء المخلصين

فإذا قدم من يستحق التأخير، أو أخر من يستحق التقديم، كان ذلك إيذاناً بحرب من الله.

عن يزيد بن سفيان قال: قال لى أبو بكر الصديق رضى الله عنه حين بعثنى إلى الشام:

يا يزيد: إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[من وَلِىَ من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله. لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخلَه جهنم[1]].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[من استعمل رجلا على عصابة من المسلمين، وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين[2]].

وروى البخارى أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال:

[إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة.

قيل:

يارسول الله وما تضييع الأمانة؟

قال: أن يُوَسَّد الأمرُ إلى غير أهله].

وأموال الدولة أمانة فى يد الحاكم، والواجب عليه أن يضعها فى مواضعها، وأن ينفقها فيما ينفع الجماعة والفرد، ويعود عليهم بالرفاهية والإسعاد.

---

(١) لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلا، أى لايقبل منه فرضاً ولا نفلا. رواه الحاكم. وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرة من بعير ، ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم :

[لا يحل لى من مالكم هذا ولا هذه الوبرة] .

وجميع الحقوق المشروعة للمحكومين أمانة فى عنق الحاكم. وإنه مسئول عن حمايتها وتمكينهم منها .

[كلكم راع ومسئول عن رعيته ...

الإمام راع مسئول عن رعيته[1]] .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ..

[ما من إمام يُغلق بابه دون ذوى الحاجة والخَلة[2] والمسكنة ،إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

[ما من أمتى أحد ولى من أمر الناس شيئاً ، لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة[3]] .

وكتب عمر إلى عتبة بن فرقد :

[إنه ليس بكدك ، وكد أبيك ، ولا كد أمك ، فأشبع المسلمين فى رحالهم مما تشبع منه فى رحلك ، وإياكم والتنعم، وزى أهل الشرك ولبوس الحرير[4]] .

والودائع من أعظم الأمانات التى يجب حفظها وردها إلى أصحابها .

« فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ » .

ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – :

---

(١) رواه البخارى (٢) الخلة : الفقر ... رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٣) رواه الطبرانى عن ابن عباس فى الصغير والأوسط .

(٤) رواه مسلم .

[أد الأمانةَ إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك [1]] .

وفى هذا الحديث توجيه إلى ماينبغى أن يكون عليه الإنسان من الاستمساك بفضيلة الأمانة ، حتى مع الخونة الغادرين ...

وحفظ الأسرار ، وعدم إفشائها ، مما يدخل فى هذا المجال : لما فى هذا من المحافظة على حقوق المعارف والأصدقاء . ثم إذا تهون الإنسان وأفشى سر غيره كان إفشاؤه حراماً إن كان فيه إضرار ، ولؤماً إن لم يكن فيه شيء من ذلك ، ومن حقة أن يكره وإن كان كاذباً فليس الصدق واجباً فى كل حال .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة [2]] .

ويقول فيما يرويه جابر عنه صلوات الله وسلامه عليه :

[المجالس بالأمانة . إلا ثلاثَ مجالس :

سفك دم حرام ..

أو فرج حرام ..

أو اقتطاع مال بغير حق [3]] :

ومما يتأكد حفظه من الأسرار ما كان بين الرجل وزوجه .

[عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه قال :

[إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضى إلى امرأته ، وتفضى إليه ، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه [4]] .

وفى رواية : [إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته ، وتفضى إليه ثم ينشر سرها] .

---

(١) أخرجه الدارقطنى
(٢) رواه أبو داود والترمذى .
(٣) رواه أبو داود
(٤) رواه مسلم وأبو داود .

وروى أحمد ، عن أسماء بنت يزيد : أنها كانت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرجال والنساء قعود عنده ، فقال :

[لعل رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعل امرأة تخبر بما فعلته مع زوجها .. فأرم[1] القوم . فقلت : أى والله يارسول الله إنهم ليفعلون ، وإنهن ليفعلن . قال :

فلا تفعلوا. فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة ، فغشيها والناس ينظرون]

وقال العباس لابنه عبد الله :

[إنى أرى هذا الرجل ـ يعنى عمر رضى الله عنه ـ يقدمك على الأشياخ فاحفظ منى خمساً :

(١) لاتفشين له سراً ...

(٢) ولا تغتابن عنده أحداً ...

(٣) ولا يجربَنّ عليك كذباً ...

(٤) ولا تعصين له أمراً ...

(٥) ولا يطلعن منك على خيانة .

فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف] .

وقيل لمحمد بن كعب القرظى : أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام ، وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد .

والمشورة أمانة .

فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[المستشار مؤتمن[2]] أى أنه أمين فيما سئل فيه .

وعنه أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال :

---

(١) سكتوا (٢) رواه أصحاب السنن .

[من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه [1]] .

والشركة أمانة .

فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

يقول الله ـ عز وجل ـ :

[أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه .

فإذا خان أحدهما صاحبه خرجت من بينهما [2]] .

وروى الدارقطنى أنه — صلى الله عليه وسلم — قال :

[يد الله على الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه ، فاذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما] .

ومما يتنافى مع الأمانة أن تموّه على من يثق بك ، وتضلله ، وتكذب عليه فى الحديث .

روى أحمد وأبو داود بسند ضعيف،عن سفيان بن أسيد،أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب]

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .

(٢) رواه أبو دواد والحاكم وقال صحيح الإسناد .

الصدق طمأنينة

١ — الصدق دعامة الفضائل، وعنوان الرق، ودليل الكمال ، ومظهر من مظاهر السلوك النظيف .

وهو الذى يضمن رد الحقوق ، ويوطد الثقة بين الأفراد والجماعات لا يستغنى عنه عالم ، ولا حاكم ، ولا قاض ، ولا تاجر ، ولا رجل، ولا امرأة ، ولا صغير ، ولا كبير . ماداموا جميعاً يعيشون فى مجتمع ، ويتعاملون فيه مع الآخرين

وهو من صفات الله عز وجل . يقول الله — تعالى شأنه — فى ذلك :

« وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً[1] » .

ويقول :

« قُلْ : صَدَقَ اللَّهُ[2] » .

ويقول :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ[3] » .

ويقول :

« وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ[4] » .

---

(١) سورة النساء آية ٨٧
(٢) سورة آل عمران آية ٩٥
(٣) سورة الرعد آية ٣١ وآل عمران آية ٩
(٤) سورة التوبة آية ١١١

وهو أظهر ما يتميز به الأنبياء .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[1] » .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا[2] » .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا[3] »

وسأل إبراهيم ربه فقال :

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ[4] » .

ولسان الصدق : هو الثناء عليه من جميع الأمم ، بالصدق لا بالكذب .

ولما أخبر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ بمجىء الوحى إليه، لأول عهده به ،قالت:

كلا : ..
والله لايخزيك الله أبداً . .
إنك لتصدق الحديث ...

ونظر أحد الأعراب إلى وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبصر أمارات النبوة تشع من وجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال :

والله ما هذا الوجه بوجه كذاب .

---

(١) سورة مريم آية ٤١
(٢) سورة مريم آية ٥٤
(٣) سورة مريم آية ٥٠
(٤) سورة الشعراء آية ٨٣ ، ٨٤

وحين سأل هرقل ـ عاهل الروم ـ أبا سفيان وكان على شركه حينئذ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وقال له :

هل جربتم عليه كذباً ؟

فقال أبو سفيان : لا

فقال هرقل :

ما كان ليدع الكذب على الناس ، و يكذب على الله . .

ورسالة الإسلام كلها الصدق :

« وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[1] » .

أى أن الرسول جاء بالصدق ، وصدق المؤمنون برسالته ، وأولئك هم الذين يتقون الله حقاً . .

والله سبحانه يأمر المؤمنين باتقائه ، وأن يكونوا مع الصادقين فى جهادهم وإخلاصهم ، وتضحيتهم من أجل الحق ، و إعلاء كلمة الله .

والاندماج مع الصادقين يزيد المؤمن إيمانا ويقينا وهدى .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[2] » .

والصدق فى ميدان الجهاد من دلائل الإيمان .

« فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ[3] » .

أى إذا جد الجد ، وصمم المؤمنون على القتال ، فلو صدق هؤلاء الله فى الإيمان ، والطاعة ، والجهاد فى سبيله ، لكان ذلك خيراً لهم .

---

(١) سورة الزمر آية ٣٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٩ (٣) سورة محمد آية ٢٠

والله أثنى على الذين وفوا بما عاهدوا عليه، من الصبر فى الحرب ، والشجاعة فى لقاء العدو ، ولم يهنوا أو يستكينوا .

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً [(١)] »

أى أنهم وفوا بعهد الله ، وما بدلوا شيئا منه ، بل صدقوا فيه ، وثبتوا عليه ، وأن منهم من استشهد ، ومنهم من ينتظر لم يستشهد بعد .

والآخرة لاينفع فيها إلا الصدق فى الإيمان ، والأقوال ، والأفعال .

« هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ [(٢)] »

والله بشر المؤمنين بقدم الصدق : أى المكان الشريف الرفيع ، وبمقعد الصدق .

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ [(٣)] » .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [(٤)] » .

والله سبحانه أمر رسوله أن يسأله مدخل الصدق ، ويخرجه مخرج الصدق.

« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ [(٥)] »

أى أن يكون دخوله ، وخروجه لله ، فى مرضاته ، وأن يكون ذلك متصلا بالظفر وحصول المطلوب، مثل خروجه – صلى الله عليه وسلم – من مكة ، ودخوله المدينة .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٤
(٢) سورة المائدة آية ١١٩
(٣) سورة يونس آية ٢
(٤) سورة القمر آية ٥٥ .
(٥) سورة الإسراء آية ٨٠ .

والصدق تطمئن له النفوس الكريمة ، والكذب يقلق القلوب ، ويدعها مضطربة حائرة

فعن الحسن بن على قال : حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

[دع مايريبك إلى مالا يريبك[1] فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة] .

رواه الترمذى وقال : حديث صحيح .

والصدق مصدر لكل فضيلة من الفضائل ، كما أن الكذب أساس كل الشرور والمفاسد .

فعن ابن مسعود : أنه - صلوات الله وسلامه عليه - قال :

[عليكم بالصدق فإن الصدقَ يهدى[2] إلى البر ، وإن البرَّ يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويَتَحَرَّى[3] الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً[4] .

وإياكم والكذبَ فإن الكذب يهدى إلى الفجور[5] والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذَّاباً[6]] .

وروى أحمد ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال:

---

(١) أى اترك ما تشك فيه إلى مالا تشك فيه من الحلال اتقاء للشبهة « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه »

(٢) يهدى : يوصل إلى كل خير

(٣) التحرى : طلب أحرى الأمرين أى أولاهما وأحقهما .

(٤) مبالغة فى الصدق .

(٥) الفجور : اسم جامع لكل شر .

(٦) رواه البخارى ومسلم .

[يارسول الله ماعمل أهل الجنة ؟

قال: الصدق ، إذا صدق العبد بَرَّ ، وإذا بر آمن ، وإذا آمن دخل الجنة..

قال : يارسول الله ، وما عمل أهل النار ؟

قال : الكذب، إذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر وإذا كفر -يعنى- دخل النار] .

والاتصاف بالصدق خير من كل شىء من أعراض الدنيا .

فقد روى أحمد ، والطبرانى ، والبيهقى ، بأسانيد حسنة ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله صلى الله عايه وسلم قال :

[أَربع إذا كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا[1].

(١) حفظ أمانة ...

(٢) وصدق حديث . . .

(٣) وحسن خليقة . . .

(٤) وعفة فى طُعمه] . . .

والمؤمن من طبيعته الصدق.

روى الإمام أحمد ،عن أبى أُمامة، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

[يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب] .

ولا يجتمع إيمان وكذب .

سئل الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .

هل المؤمن يكون جباناً ؟

قال : نعم .

---

(١) أى أن هذه الخصال الأربع إذا اتصف بها الإنسان فلا يأس على شىء فإنه من عرض الدنيا وشهواتها ففيها غنى وعوض .

قيل : هل يكون بخيلا ؟

قال : نعم .

قيل : هل يكون كذاباً ؟

قال : لا ...

وما كان من خلق أبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب .. وما كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذبة فما تنحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله عز وجل منها توبة .

٢ — ضروب الصدق :

والصدق أنواع : فمنه صدق اللسان ، ومنه الصدق فى النية والإرادة، ومنه صدق العزم ، ومنه الصدق فى الوفاء بالعزم ، ومنه الصدق فى الأعمال .

ولقد أفاض الإمام الغزالى . فى الكلام عن كل نوع من هذه الأنواع . وهذه خلاصة ما قال : —

(ا) فصدق اللسان : وهو خاص بالأخبار ، والصدق فيها معناه الإخبار عن الأشياء على ماهى عليه ، فمن أخبر عن الأشياء على ماهى عليه فهو صادق .

[يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

[البَيِّعان بالخيار مالم يتفرقا . فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما . وإن كتما وكذبا مُحِقَت بركة بيعهما[1]] .

(ب) أما الصدق فى النية والإرادة بحيث لا يكون ثمة باعث على العمل إلا الله ، والصدق بهذا المعنى يرجع إلى الإخلاص لله . ولهذا يقال لمن لم يخلص فى

---

(١) رواه البخارى وغيره .

عمله إنه كاذب ـ أى فى إرادته ونيته ـ كما جاء فى حديث الثلاثة المرائين بأعمالهم كما تقدم فى الإخلاص .

ومن ذلك قول الله تعالى للمنافقين (والله يشهد إنهم لكاذبون) .
أى هم كاذبون فى قولهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إنك لرسول الله) .

وقولهم هذا صدق ، ولكن كذبه من حيث مخالفته لما يعتقدون .
فهم لم يخلصوا فى هذا القول . فكانوا كذبة بشهادة الله .

(ج) ومنه صدق العزم : وهو أن تكون عزيمة المرء فيما يعزم عليه من العمل جازمة صادقة ليس فيها ضعف ولا تردد .

قال الإمام الغزالى : فالصادق والصِّدِّيق : هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات .

(د) والصدق فى الوفاء بالعزم: وهو أشد من الصدق الثالث، قال الإمام الغزالى : فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال . إذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا أيضاً يضاد الصدق فيه .

ومن أمثلة ذلك ماروى عن أنس بن النضر ، وما رواه أبو نعيم فى الحلية عن عبيد بن عمير :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مُصْعَب بن عمير ـ صاحب لواء الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وقد سقط على وجهه يوم أُحد شهيداً ـ فقال صلوات الله وسلامه عليه :

« رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ[1] » .

وروى الترمذى بسند حسن ، عن فَضالة بن عبيد . أن عمر رضى الله عنه قال : ـ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[الشهداء أربعة :

رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل .

فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ـ ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوتُه .

قال الراوى :

فلا أدرى قلنسوة عمر ، أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ورجل جيد الإيمان . إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطَّلْح أتاه سهم غاْئر فقتله . فهو فى الدرجه الثانية .

ورجل مؤمن خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا . لقى العدو ، فصدق الله حتى قتل . فذلك فى الدرجة الثالثة

ورجل أسرف على نفسه لقى العدو . فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الرابعة]

والله سبحانه جعل العزم عهداً ، والوفاء به صدقًا ، كما جعل الخلف فيه كذبًا .

قال مجاهد:

خرج رجلان عل ملأ من الناس ، فقالا :

---

(١) الأحزاب آية (٢٣)

إن رزقنا الله مالا لنَصَّدَّقن : فبخلوا به .

فنزل قول الله سبحانه :

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[1] » .

(هـ) ومن الصدق : الصدق فى الأعمال :

وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لايتصف هو به . فمن وقف على هيئة الخشوع فى صلاته ، وهو لايرائى غيره ، ولكنه فى الباطن ينصرف عن حقيقة الصلاة ومعناها ، ومتعلق بشهوة من شهوات الدنيا فهو كاذب بلسان الحال فى عمله ، وليس بصادق فيه .

فالصدق فى العمل استواء السر والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً منه .

ومن أمثلة ذلك ، ما قاله عبد الواحد بن زيد فى وصف الحسن قال :

كان الحسن إذا أمر بشىء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شىء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحداً قط أشبه سريرةً بعلانية منه .

قال الغزالى :

(و) الصدق السادس وهو أعلى الدرجات ، وأعزها :

وهو الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق فى الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والزهد ، والرضا ، والتوكل ، والحب ، وسائر هذه الأمور .

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

فإن هذه الأمور لها مبادىء ينطلق الاسم بظهورها .

ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها. وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال : فلان صادق القتال . ويقال هذا هو الخوف الصادق . وهذه هي الشهوة الصادقة .

قال الله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[1] » .

وقال :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[1] » .

فالتحقيق فى هذه الأمور عزيز جداً . ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ منه بحسب حاله : إما ضعيف ، وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقاً فيه .

ثم درجات الصدق لا نهاية لها ، وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقاً فى الجميع فهو الصديق حقاً . . .

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٥ (٢) البقرة آية ٢ .

٣ — الوفاء من الصدق :

ومن أنواع الصدق : الوفاء بالوعد ، سواء أكان ذلك مع الله ، أو مع الناس .

قال الله سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [١] » .

وقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [٢] » .

وقال :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا [٣] » .

وعن عبد الله بن أبي الحَمْسَاء قال :

« بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث . وبقيت له بقية [٤] ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث [٥] فجئت ، فإذا هو في مكانه فقال صلى الله عليه وسلم :

[يافتى : لقد شققتَ على ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك [٦]] .

---

(١) المائدة آية ١
(٢) الصف آية ٢ (٣) مريم آية ٥٣ .
(٤) بقية من ثمن البيع .
(٥) أى ثلاث ليال : أى أنه انتظره ثلاث ليال وفاء بالوعد الذى وعده .
(٦) رواه أبو داود .

والوفاء من الصفات الطيبة التى تجعل الوفى موضع الثقة وتكسبه النجاح والظفر .

وهو يعتبر من الصفات التى يفخر به المتمدنون ، ويعدونه من أسباب رقى المجتمع وتقدمه.

والإسلام يوجبه ويفرضه ، فإذا وعد أحد وعداً وأخلفه دون أن يكون له عذر فهو آثم ، ومتصف بصفة من صفات النفاق .

ولما حضر عبدالله بن عمر الوفاة ، قال :

إنه خطب إلىَّ ابنتى ، رجل من قريش ، وقد كان منِّى إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق . أشهدكم أنى قد زوَّجته ابنتى .

وهو يشير بذلك إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ثلاث من كن فيه ، فهو منافق ، وإن صام ، وصلى ، وزعم أنه مسلم : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان] .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه ــ لا يعد وعداً إلا ويقول : إن شاء الله .

فإذا كان الإنسان مصمماً على الوفاء بالوعد ، ثم طرأ له من الأعذار ماحال بينه وبين الوفاء ، فلا إثم عليه .

فعن زيد بن أرقم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[إذا وعد الرجل أخاه ، ومن نيته أن يفى[1] فلم يف ، ولم يجىء للميعاد[2] فلا إثم عليه[3]] .

والوفاء للود القديم من أنبل أنواع الوفاء ، فعن عائشة قالت :

جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم عجوز ، فقال لها :

---

(١) يفى : مفهومه إنه إن وعد ونوى عدم الوفاء فعليه الإثم .
(٢) لعذر من الأعذار
(٣) رواه أبو داود والترمذى .

من أنت ؟

قالت : جُثّامة المزنية ..

فقال :

بل أنت حسانة الْمُزَنِيَّة . . كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا !

قالت بخير .

فلما خرجت ، قلت : تُقبل هذا الإقبال على هذه ؟

قال : صلى الله عليه وسلم :

[إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان[١]] .

٤ — التنفير من الكذب :

والإسلام يقبح الكذب ، وينفر منه ، ويجعله من خصال الكافرين ، ويتوعد عليه بأقصى العذاب .

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٢] » .

« إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ[٣] » .

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ[٤] » .

---

(١) قال الحاكم : صحيح على شرطهما ولا علة له وأقره الذهبي.

(٢) النحل الآية : ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) النحل الآية : ١٠٤ .

(٤) سورة الزمر الآية رقم ٥٩ .

وقد يستهتر المرء بفضيلة الصدق ، ويستلذ الكذب من أجل أن يضحك الناس . والإسلام ينهى عن ذلك درءاً للمفاسد ، وسداً لذريعة اتخاذ الكذب عادة ، لو فى مثل هذه الحالة التى ليس فيها إضراراً بأحد ، لا فى نفس ، ولا مال ، ولا فى عرض .

روى أبو داود ، والنسائى ، والبيهقى ، والترمذى وحسنه ، عن بهز بن حكيم عن أبيه ، عن جده . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[ويل للذى يحدّث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ، ويل له . ويل له] .

والإسلام يدعو إلى التثبت فيما يقوله الإنسان ويحكيه . وذلك يقتضى ألا ألا يحدث بكل ما يسمع فإن من الأخبار ما هو صادق ، ومنها ما هو كاذب ، فإذا حدث بكل ما سمع ، فلا يأمن من الوقوع فى الكذب :

روى مسلم عن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع] .

ومن شر أنواع الكذب ما صدر عن رئيس كبير لا يقدر مسئولياته .

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة(١) ولا يزكيهم(٢) ولا ينظر(٣) إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان . وملك كذاب . وعائل مستكبر(٤)] .

وشهادة الزور أقبح الكذب ، وأفحشه . قال صلى الله عليه وسلم :

[ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، وقال:

---

(١) لا يتحدث معهم حديث رحمة .
(٢) يطهرهم .
(٣) ينظر إليهم نظرة إكرام .
(٤) فقير متكبر .

ألا أقول الزور ، وشهادة الزور [1]] .

فما زال صلى الله عليه وسلم يكررها حتى قلنا : ليته سكت . رواه البخارى

ومما عده الإسلام كذباً أن يَعِدَ المرء صبياً من الصبيان شيئاً ثم لا يفي له به .

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[2] :

[من قال للصبي : تعالى[3] هاك . ثم لم يعطه ، فهى كذبة] .

وعن عبد الله بن عامر ، قال :

دعتني أمى يوماً ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا ـ فقالت : ها تعالى أعطك :

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ما أردت أن تعطيه ؟

قالت : أردت أن أعطيه تمراً .

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم :

أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة [4]] .

ومن الكذب أن يظهر الإنسان لنفسه فضيلة من الفضائل وهو عار منها .

فعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها أن امرأة قالت : يارسول الله إن لى ضَرة ، فهل على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذى يعطيني[5] ؟ .

(١) شهادة الزور يترتب عليها ضياع الحقوق وكثرة المظالم ، وخراب البيوت ، والتباغض واضطراب الأمن ، وفساد المجتمع .

(٢) رواه أحمد . (٣) خذ

(٤) رواه أبو داود والبيهق .

(٥) اى أنها تريد أن تظهر أنها أرفع قدراً عند زوجها لتغيظ ضرتها .

فقال :

[المتشبِّع(١) بما لا يُعطَ كلابس ثوبى زور](٢)

فالمرأة التى تحكى عن زوجها ماتفخر به، وتكذب من أجل مراغمة الضرات، آثمة .

قال الإمام الغزالى :

ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لم يتحققه ، ورواية الحديث الذى لا يتثبته . إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول: لا أدرى، وهذا حرام. ومن الكذب أن يُقدَّمَ الطعام، فيقول الإنسان لا أشتهيه وهو يشتهيه قالت أسماء: كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعى نسوة .

قال : فوالله ما وجدنا عنده قِرىً إلا قدحاً من لبن ، فشرب ، ثم ناوله عائشة ، قالت : فاستحيت .

فقلت : لا تردى يد رسول الله خذى منه .

قالت : فأخذت منه على حياء ، فشربت منه .

ثم قال ناولى صواحبك ، فقلن : لا نشتهيه .

فقال صلى الله عليه وسلم :

[تجمعن جوعاً وكذباً] .

قالت : فقلت : يارسول الله ، إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه لا أشتهيه ـ يعدُّ ذلك كذباً ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

[إن الكذب يكتب كذباً حتى تكتب الكذيبة كذيبة](٣) .

---

(١) المتشبع هو المظهر للشبع وليس بشبعان .

(٢) ثوبى زور : صاحب زور أى الذى يزور على الناس ويكذب عليهم ويدعى أن له فضيلة ليست له ليغتر به الناس .

(٣) رواه أحمد والبيهقى

ومن الكذب أن يزعم أنه رأى فى المنام رؤيا ولم ير شيئاً . .

فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[أفرَى الفرِى أن يُرِى الرجل عينيه مالم تريا][1]

والذى يكذب فى الحلم له عذاب خاص يعذب به فى الآخرة ، فعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[من تحلَّم بحلم لم يره كُلِّفَ أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل[2]]

٥ ــ الترخيص فى الكذب للمصلحة :

إن الإسلام يحرِّم الكذب ، ويجعله من أقبح الذنوب وأفحشها .

ولكنه مع ذلك يستثنى بعض الحالات من هذه القاعدة ، كأن يتحقق من الكذب مصلحة من المصالح ، كالكذب فى الحرب ، أو كان من أجل الصلح بين المتخاصمين، سواء أكانوا أفرادا ، أم جماعات ، أم أمماً ، أو كان بين الزوجين.

فإن الحرب خدعة وبمجرد إعلانها ينتهى التفاهم بين المتحاربين ، وفى خداع العدو والتغرير به والكذب عليه كسر شوكته ، وتحطيم قوته ، وفى ذلك مصلحة كبرى تعلو على كثير من المصالح .

وفى الصلح بين المتخاصمين إصلاح ذات البين ، وتوحيد الكلمة ، وتقوية الصف ، وذلك مقصد من المقاصد التى يحرص عليها الإسلام ولو تحقق بنقل الكلام على غير وجهه ، كأن يقول لكل من الخصمين كلاما حسنا ، يؤلف به القلوب ، ولو كان مخالفا للحقيقة

والمحافظة على الانسجام فى البيت ،وتقوية روابط الأسرة غاية من الغايات التى يستباح من أجل الحصول عليها تجاوز الصدق .

روى أن ابن أبى عذرة الدؤلى ــ أيام خلافة عمر ــ كا يخلع النساء اللاتى

(١) أى أكذب الكذب أن يقول الرجل رأيت فى منامى كذا وكذا وهو لم ير شيئا .
(٢) هذا كناية عن التعذيب فإن العقد بين شعيرتين غير ممكن .

يتزوج بهن ، فطارت له فى النساء من ذلك أحدوثة يكرهها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ، ثم قال لامرأته :

أنشدك بالله هل تبغضينى؟

قالت : لاتنشدنى بالله .

قال : فإنى أنشدك الله ؟

قالت : نعم .

فقال لابن الأرقم :

أتسمع ؟

ثم انطلقا حتى أتيا عمر ، رضى الله عنه ، فقال :

إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ، ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبى عذرة ، فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟

فقالت : إنى أول من تاب ، وراجع أمر الله تعالى ، إنه ناشدنى فتحرجت أن أكذب ، أفأكذب ياأمير المؤمنين ؟

قال : نعم فاكذبى ، فإن كانت إحداكن لاتحب أحدنا فلاتحدثه بذلك،فإن أقل البيوت الذى يبنى على الحب ، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب .

وقد روى البخارى ومسلم عن أم كلثوم رضى الله عنها : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى[1] خيراً أو يقول خيراً] .

قالت : ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا فى ثلاث :

يعنى الحرب،والإصلاح بين الناس،وحديث الرجل امرأته ، والمرأة زوجها .

فهذا حديث صريح فى إباحة بعض الكذب للمصلحة .

(١) ينمى : يذيع .

وقد ضبط العلماء ما يباح منه . . ، ونقل النووى عن الغزالى كلاما حسنا فى ذلك فقال :

الكلام وسيلة إلى المقاصد . فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام لعدم الحاجة إليه .

وإن أمكن التوصل إليه بالكذب ولم يمكن بالصدق فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا . . .

وواجب إن كان المقصود واجبا . . .

فإذا اختفى مسلم من ظالم ، وجب الكذب بإخفائه .

وكذا لو كان عنده ، أو عنده غيره وديعة ، وسأل عنها ظالم يريد أخذها ـ وجب عليه الكذب بإخفائها ، حتى لو أخبره بوديعة عنده فأخذها الظالم قهراً وجب ضمانها على المودَع المخبر .

ولو استحلفه عليها لزمه أن يحلف ويورى فى يمينه . فإن حلف ولم يور ـ حنث على الأصح . وقيل لا يحنث . وكذا لو كان مقصود حرب ، أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه فى العفو عن الجناية، لا يحصل إلا بالكذب، أو فالكذب ليس بحرام . وهذا إذا لم يحصل الغرض إلا بالكذب، والاحتياط . فى هذا كله أن يُوَرِّى.

ومعنى التورية : أن يقصد بعبارته مقصودا صحيحا ليس هو كاذبا بالنسبة إليه.

وإن كان كاذبا فى ظاهر اللفظ ، ولو لم يقصد هذا ، بل أطلق عبارة الكذب فليس بحرام فى هذا الموضع .

قال أبو حامد الغزالى : وكذلك كل ما ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره .

فالذى له : مثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ليأخذه فله أن ينكره ، أو يسأله السلطان عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها ـ فله أن ينكرها ، ويقول : ماشربت مثلا .

وقد اشتهرت الأحاديث بتلقين الذين أقروا بالحدود الرجوعَ عن الإقرار .

وأما غرض غيره : فمثل أن يسأل عن سر أخيه فينكره ونحو ذلك .

وينبغى أن يقابل بين مفسدة الـكذب ، والمفسدة المترتبة على الصدق ... »
فإن كانت المفسدة فى الصدق أشد ضرراً فله الـكذب ، وإن كان عكسه أوشك حرم عليه الـكذب ، ومتى جاز الـكذب ، فإن كان المبيح غرضاً يتعلق بنفسه فيستحب ألا يكذب ، ومتى كان متعلقاً بغيره لم تجز المسامحة بحق غيره ، والحزم تركه فى كل موضع أبيح إلا إذا كان واجباً[1]

ويرى الإمام الغزالى أن الـكذب على الصبيان مباح ، إذا كانوا لا يرغبون فى التعليم إلا به ، قال فى كتابه « إحياء علوم الدين » :

إذا كان الصبي لا يرغب فى المـكتب إلا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحاً .

نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذباً ، ولـكن الـكذب المباح أيضاً قد يكتب ويحاسب عليه ، ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح .

ومما يترخص فيه — الـكذب فى الشعر على سبيل المبالغة .

فإذا توسع المادح فى المدح فإنه لا يلتحق بالـكذب الحرام .

كقول أبى تمام فى مدح الخليفة المعتصم :

هو البحر من أى النواحى أتيتَه
فلُجته المعروف والجود ساحله
تعوَّد بسط الـكف حتى لو انه
ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غيرُ روحه
لجاد بها فليتق الله سائله

(١) ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ أذكار النووى .

فهذا مدح للخليفة ببلوغه النهاية فى الجود والسخاء . فإن لم يكن سخياً ، كان الشاعر كاذباً . وإن كان موصوفا بهذا الوصف ، فالمبالغة من صنعة الشعر ولا يقصد منه اعتقاد صورته كما يقول الإمام الغزالى . .

وقد قيل : أعذب الشعر أكذبه .

وقد روى البيهقى فى دلائل النبوة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان جالساً ، ومعه السيدة عائشة ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً .

قالت عائشة :

فبهت ، فنظر إليها النبى ، وقال لها : مالك بَهت:

قالت :

يارسول الله . نظرت إليك ، فجعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نوراً ، ولو رآك أبو بكر الهذلى ، لعلم أنك أحق بشعره .

قال : وما يقول ياعائشة أبو بكر الهذلى ؟

قالت : يقول هذين البيتين

ومبرأ من كل غبر حيضة
وفساد مرضعة وداء مُغيل
وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه
برقت كبرق العارض المتهلل

فقام الرسول ، وقبّل مابين عينيها وقال :

[جزاك الله خيراً ياعائشة ... ماسررتِ منى كسرورى منك] .

قال الإمام الغزالى :

ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ماجرت به العادة فى المبالغة كقوله : طلبتك كذا وكذا مرة . وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات

بعددها ، بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً ، وإن كان طلبه لايعتاد مثلها فى الـكثرة لايأثم ، وإن لم يبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الـكذب .

٦ — فى المعاريض مندوحة عن الـكذب :

إذا كانت هناك حاجة تدعو إلى الـكذب ، واضطر الإنسان إليه — ففى المعاريض مندوحة عنه .

لأن التعريض حينئذ أهون من التصريح .

فعن عمران بن حصين ، يقول لرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[إن فى المعاريض مندوحة عن الـكذب[1]] .

رواه البيهقى وابن عدى ..

ومثال ذلك ماروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه سئل عمن معه أثناء الهجرة فقال : هاد .

ففهم السا ل من ذلك أنه هاد يهديه الطريق ، وكان قصد الصديق رضى الله عنه بالهادى — رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وكان معاذ بن جبل رضى الله عنه عاملا لعمر رضى الله عنه ، فلما رجع قالت له امرأته — ولم يكن أتاها بشىء — ماجئت به مما يأتى به العمال إلى أهلهم ؟

فقال لها : كان عندى ضاغط أى رقيب ..

قالت : كنتَ أميناً عند رسول الله ، وأبى بكر ، فبعث عمر معك ضاغطا .

---

(١) المعاريض : جمع معراض مثل مفاتيح جمع مفتاح مأخوذه من التعريض المقابل للصريح من القول . والمنادح من الندح وهو الأرض الواسعة أى فى المعاريض والتورية ، فسحة عن الـكذب .

وقامت بذلك بين نسائها ، واشتكت عمر .

فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال له : هل بعثت معك ضاغطا ؟ .

قال : لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك . فضحك عمر ، وأعطاه شيئاً ، وقال له : أرضها به .

وكان معاذ يقصد بالرقيب : الله سبحانه وتعالى . .

قال النووى :

واعلم أن التورية والتعريض معناهما أن تطلق لفظاً هو ظاهر فى معنى ، وتريد به معنى آخر يتناوله ذلك اللفظ ، لكنه خلاف ظاهره .

وهذا ضرب من التغرير والخداع .

قال العلماء :

فإن دعت إلى ذلك مصلحة شرعية راجحة على خداع المخاطب ، أو حاجة لا مندوحة عنها إلا بالكذب ، فلا بأس بالتعريض ، وإن لم يكن شىء من ذلك ، فهو مكروه وليس بحرام . . إلا أن يتوصل بذلك إلى أخذ باطل ، أو دفع حق ، فيصير حينئذ حراما .

هذا هو ضابط الباب .

٧ــ المزاح فى حدود الصدق :

يجوز المزاح ، أو المداعبة بالكلام من أجل السرور ، والمؤانسة ، واستمالة القلوب ، فى حدود الحق والصدق ، وتجنب إيذاء الغير .

وهو الذى كان يفعله النبى صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله إنك تداعبنا .

قال : [إنى وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً] .

ومن مداعباته صلوات الله وسلامه عليه . مارواه الترمذى وأبو داود ، عن أنس أن رجلا قال : يارسول الله احملنى[١] .

فقال صلى الله عليه وسلم : إنا حاملوك على ولد الناقة .

قال الرجل: وما أصنع بولد الناقة؟

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

[وهل تلد الإبل إلا النوق]

وعنه قال : كان النبى يخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير :

[يا أبا عمير ما فعل النغير][٢] .

وعن الحسن : أنه صلى الله عليه وسلم قال لامرأة عجوز , مرا :

[لا يدخل الجنة عجوز]

فحزنت . فقال لها :

[إنك لست يومئذ بعجوز ، ثم قرأ :

إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا][٣] .

وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن . جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إن زوجى يدعوك .

[قال :

[ومن هو ؟ أهو الذى بعينه بياض ؟

قالت : والله مابعينه بياض

قال صلى الله عليه وسلم إن بعينه بياضا .

فقالت : لا والله .

---

(١) أعطنى دابة أركبها (٢) النغير : تصغير نغر وهو البلبل .

(٣) أتراباً جمع ترب أى مستويات فى السن الآية — ٣٧ سورة الواقعة .

فقال : صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلا وبعينه بياض[١]] .

وكان نعيمان الأنصارى رجلا مزّاحا ، فكان يشرب الخمر فى المدينة ، فيؤتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيضربه ، ويضربه أصحابه .

فلما كثر ذلك منه ، قال له رجل من الصحابة :

لعنك الله ..

فقال له النبى :

[لاتفعل فإنه يحب الله ورسوله] .

وكان لايدخل المدينة رسل ولا طرفة[٢] إلا اشترى نعيمان منها، ثم أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم فيقول :

يارسول الله ، هذا قد اشتريته لك ، وأهديته لك . .

فإذاجاءصاحبهايتقاضاهالثمن ، جاء به إلى رسول اللهصلى اللهعليه وسلم ، وقال:

يارسول الله : أعطه ثمن متاعه .

فيقول له صلى الله عليه وسلم :

أو لم تهده لنا ؟ ! .

فيقول نعمان: يارسول الله ، إنه لم يكن عندى ثمنه ، وأحببت أن تأكل منه .

فيضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، ويأمر لصاحبه بثمنه .

ومع جواز المزاح فى الحدود التى لاتتجاوز الحق ، ولا يشوبه إثم ، فقد رأى البعض أنه لا ينبغى أن يكثر منه الإنسان لمنافاته للوقار ، وقد يورث الضغينة أحيانا .

فمن أبى أمامة أن الرسول صلى الله عايه وسلم قال :

---

(١) أى البياض المحيط بالحدقة . (٢) الطرفة : الشىء الطريف .

[أنا زعيم[١] ببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً] .

وفى الحديث :

[لا تمار أخاك ولا تمازحه ، ولا تعده موعداً تتخلفه[٢]] .

وأوصى سعيد بن العاص ابنه فقال :

« يابنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترى عليك » .

والكذب الصريح فى المزاح كما يعتاد بعض الناس من ملاعبة الحمقى ، كأن يقرر أحدهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجه ، فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب فهو حرام .

وإن لم يكن إلا للمطايبة فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه .

هكذا يرى الإمام الغزالى ثم يقول:

وأما قوله عليه السلام .

[ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس ، يهوى بها فى النار أبعد من الثريا] .

فقد أراد به مافيه غيبة مسلم ، أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

---

(١) الزعيم : الضامن .

(٢) رواه الترمذى عن ابن عباس .

إن الله يحب الرفق في الأمر كله

وضع الإسلام قواعد السلوك مع الناس ، وحدد طرق المعاملة ، وألزم المرء أن يراعى هذه القواعد ، ويلتزم هذه الطرق ليكثر الخير ، ويعم الأمن ، ويسود السلام ، وليشعر كل فرد من أفراد المجتمع ، بأنه مع إخوة يتعاونون معه ، وليس مع ذئاب يريدون افتراسه .

ومن هذه القواعد التى فرضها الإسلام أن يعامل الإنسان غيره بالرفق واللين ، فلا يغلظ فى قول ، ولا يقسو فى معاملة .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء الا شانه[1]] .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله[2]] .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[من يحرم الرفق يحرم الخير كله[3]]

وأول خطبة خطبها النبي — صلى الله عليه وسلم — يوم دخل المدينة :

[أيها الناس أطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، وألينوا الكلام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا جنة ربكم بسلام] .

وهذا الأدب من الآداب التى اتصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من أسباب محبة الناس له ، وجمعهم عليه ، يقول الله تبارك وتعالى :

---

(١) رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها . (٢) رواه البخارى عن عائشة .
(٣) رواه مسلم .

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ . وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ . وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ[1] » .

فالله سبحانه ، يبين أن الرحمة التى تحلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت من أسباب اللين والرفق بالمؤمنين ، وأنه لو اتصف بالقسوة والغلظة لانصرف الناس عنه ، وأن عليه .

أن يعفوا عنهم إذا أساءوا . . .

وأن يطلب لهم المغفرة إذا أذنبوا

وأن يشاورهم فى الأمر تأليفاً لقلوبهم ، وتطييباً لخواطرهم .

وهذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو فى الوقت نفسه موجه لأمته ، فكل ما طلب منه أن ينفذه ، فمطلوب من أمته أن تقتدى به فيه ، عدا ما اختص به .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا[2] » .

وإن هذه المعاملة من اللين والرفق وخفض الجناح ، ليست وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة ، وإنما هى عامة بين الناس جميعاً : القريب منهم والبعيد ، والمطيع والعاصى ، والبار والفاجر .

يقول الله تعالى :

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ[3] » .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩ (٢) سورة الأحزاب آية : ٢١ (٣) الحجر آية : ٨٨

ويقول :

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (١) » .

أى أن اللين ، وخفض الجناح ، يجب أن يبسطا على المؤمنين جميعاً ، حتى على العصاة منهم ، وانما تطلب البراءة من أعمالهم السيئة ـ كى لايستمرئوها ، وتصبح جزءاً من سلوكهم المعتاد ، فيصعب عليهم التخلص منها .

ولما كان الـكبر ، و التعالى على الناس ، ممايتنافى مع الخلق الـكريم ، ويغرس الفرقة والعداوة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من صلات ، شن الإسلام عليه حربا شعواء ، ليطهر منه النفوس والقلوب .

فالله سبحانه يبغض المختال المتبختر ، المعرض عن الناس كبراً وأنفة .

« وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا(٢) إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٣) » .

ومهما أعجبت المرء نفسه ، واختال فى مشيته ، فأخذ يطأ الأرض بشدة ، ويرفع رأسه تطاولا على الناس، فهو لن يخرق الأرض ، ولن يبلغ الجبال طولا .

« وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً (٤) » .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) المرح : الاختيال والتفاخر.

(٣) سورة لقمان آية : ١٨

(٤) الإسراء آية : ٣٧ .

وقد يتعالى المرء بنسبه العالى ، وحسبه الرفيع ، فأراد الإسلام أن يطارد هذه الجاهلية ، ويقضى على هـذه العصبية التى أرثت الأحقاد ، وأثارت الفتن ، وأشعلت الحروب زمناً طويلا .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ــ أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال :

[إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَةَ(١) الجاهلية ، ونخرها بالآباء ، مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ليدعن رجال نخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الُجعلان(٢) التى ترفع بأنفها النتن(٣)] .

والمتواضعون هم أهل الله ، والمتكبرون ليس لهم من بره حظ ولا نصيب .

« وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا(٤) » .

أى مشياً هيناً متواضعاً لا تكبر منه .

وعن جارية بن وهب رضى الله ــ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره(٥) . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عُتلٍّ جَوَّاظ مستكبر](٦) .

والمتكبر يرى أنه متميز على غيره بفضيلة العلم ، أو العمل ، أو المال ، أو الجاه أو الصلاح ، أو القوة ، أو الجمال ، أو غير ذلك من النعم الظاهرة ، فيصرفه ذلك عن إصلاح نفسه ، وعدم الالتفات إلى نصيحة غيره ، وبذلك يتعطل نشاطه عن التقدم والرقى .

---

(١) عبية: الكبر والتعاظم .

(٢) الجعلان : جمع جعل : دويبة صغيرة توجد فى مزارع البقر . وتجمع الروث . وتسميه العامة : أبو جعران .

(٣) رواه أبو داود والترمذى بسند صحيح .

(٤) سورة الفرقان آية : ٦٣ .

(٥) لو دعاه لأجابه . أو لو أقسم عليه وحلف طمعاً فى كرمه وبره لأبره .

(٦) العتل : الفظ الغليظ — الجواظ : المناع للخير .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ(١) » .

وروى الترمذى ، عن سلمة بن الأكوع ، رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين] (٢)

وأكبر ما يجازى به المتكبرون أن يصرفهم الله عن فهم آياته القائمة فى الآفاق ، وفى أنفسهم .

« سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا »(٣) .

والكبرياء صفة مختصة بالله وحده ، لا ينبغى أن ينازعه فيها منازع .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه صلوات الله وسلامه عليه ، قال :

قال الله تعالى :

[الكبرياء ردائى ، والعظمة(٤) إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار(٥)] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٠٦ : أى إذا أمر بتقوى الله استولت عليه أنفة الكلام مقرونة بذنب الإصرار .

(٢) يذهب بنفسه : يتكبر ويحتقر الناس .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٦

(٤) أى هى صفتان مختصان بالله لا ينبغى لأحد أن يدعيهما

(٥) رواه مسلم وأبو داود

وعن ابن عمر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :ـ

[بينما رجل ممن كان قبلكم ، يجر إزاره من الخيلاء ، خسف به ، فهو يتجاجل[1] فى الأرض إلى يوم القيامة] .

وروى مالك والبخارى ومسلم عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء] .

وأكثر ما يتمثل الكبر فى رد الحق ودفعه ، كما يتمثل فى ازدراء الناس واحتقارهم .

روى مسلم والترمذى ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس][2] .

ومهما ألان المرء جانبه للناس ، وقبل الحق ممن قاله أيا كان فهو من المتواضعين الذين يرفعهم الله ، ويعلى من أقدارهم .

روى مسلم والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[ما نقصت الصدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع لله إلا رفعه الله] .

---

(١) يتجلجل : يغوص وينزل رواه البخارى والنسائى
(٢) البطر : الرد ـ ، الغمط : الإحتقار

٢٠٦

والتواضع شأنه أن يثبت دعائم الأخوة ويوطد قواعد الاستقرار والطمأنينة والسلام .

روى مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، عن عياض رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد] .

هذه بعض قواعد السلوك الاجتماعى الذى فرضه الإسلام على أتباعه ، ليخلق بذلك مجتمعاً قوياً ، متماسكا ، لا يتطرق إليه الضعف ولا الوهن .

٢٢٨

أننى لم أفعل شيئاً فى حياتى . وأن كل الجهد الذى بذلته طول هذه السنوات قد ضاع هباء .. فسوف أستقيل ، وسيمر عام أو اثنان على استقالتى ، وبعدها ينسانى الجميع فى غمرة انشغالهم بالحياة .

ولكن :

لو كنت قد تزوجت ، وكونت أسرة كبيرة ، لتركت أثراً أكبر وأحسن فى الحياة .

إن وظيفة المرأة الوحيدة هى أن تتزوج ، وتكون أسرة ، وأى مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له فى حياتها هى بالذات . إننى أنصح كل طالبة تسمعنى أن تضع هذه المهام أولا فى اعتبارها .

وبعدها تفكر فى العمل والشهرة !

الجانب الاجتماعي

- وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
- النساءُ شقائقُ الرِّجال . . . .
- ذَلِكُمْ أطهرُ لِقلوبِكُمْ وَقلوبِهِنَّ .
- ألزِمُوا أولادكُمْ وَأحسِنوا أدبَهُمْ .
- وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . . .
- ابغُونِي فِي ضُعَفائِكُمْ . . . .
- فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
- سَلِّموا عَلَى أنْفُسِكُمْ . . . . .
- كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَام .

وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

كانت المرأة قبل الإسلام شبه رقيقة إن لم تكن رقيقة بالفعل .

لم يكن لها حق يعترف به .

لا حق الملك ، ولا حق مزاولة أى عمل باسمها ، ولا حق اختيار زوجها .
بل كانت تملَك ولا تَملك . . .

تُورث ولا تَرِث . . .

وتُكره على الزواج ممن تكره .

فلما جاء الإسلام رفع من شأن المرأة ، ورد إليها كرامتها، وأقر بحقوقها ، وأنزلها المنزلة اللائقة بها كإنسان له وظيفة كبرى فى الحياة .

وبهذا حررها من العبودية ، وخلصها من الظلم والاضطهاد ، ووضع عنها الأثقال التى كانت ترزح تحتها .

ويتجلى هذا التكريم للمرأة فيما قرره من تشريعات :

أولا : قرر الله سبحانه مساواة المرأة بالرجل فى الجنس ، وأنها مغرس للنوع الإنسانى ، وأنها بمقتضى ذلك تستحق كل إكبار واحترام .

قال تعالى :

« وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً (١) » .

---

(١) النحل آية : ٧٢

أى أن الله تعالى خلق المرأة من جنس الرجل فهى ليست غريبة عنه .

وأنه سبحانه جعل للرجال منهن البنين والحفدة .

وللمرأة بهذا تكون مشاركة للرجل فى بناء حياة الأسرة التى تحمل اسمه ، وترفع ذكره ، وتبقى أثره .

تأكيداً لهذه القاعدة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إنما النساء شقائق الرجال [1]] .

وإذا كانت المرأة شقيقة الرجل ، ومساوية له فى الطبيعة الإنسانية ، فإن لها من الحقوق مثل ماله منها . كحق التملك ، وحق الإرث ، وحرية التعاقد ، والتصرف فى المال بالبيع والشراء والهبة ، وحق اختيار زوجها ، وأنها لاتكره على زواج ولو كان المكره أباها .

[جاءت فتاة للنبى صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أبى زوَّجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ؟ فجعل الأمر لها ، فقالت : قد أجزتُ ماصنع ؛أبى ولكنى أردت أن أعلِم النساء ، أن الآباء ليس لهم من الأمر شىء [2]] .

ثانياً : إن المرأة إذا كانت مساوية للرجل فى الجنس ، فهى كذلك مساوية له فى تكاليف الإيمان والعمل الصالح ؛ لتهذب نفسها ، ولتبلغ الكمال الذى أعده الله للمؤمنين العاملين ، ولتكون أقدر على الإسهام بعقلها وقلبها فى ترقية الحياة وإعلائها .

قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ ، وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه أحمد والنسائى.

وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ . وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً . »[1]

ثالثاً : إن باب الرق الروحى مفتوح أمامها وأنها تستطيع أن تنال من ذلك مثل ماينال الرجل .

وقد أورد القرآن فى ذلك مكالمة الملائكة للسيدة مريم :

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ[2] » .

وأوحى الله إلى أم موسى فقال :

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[3] » .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) سورة القصص آية : ٧.

وقوله تعالى لنساء النبى :

« إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا [١] » .

كذلك كانت امرأة فرعون قدوة لغيرها من النساء ، حتى ضرب بها القرآن المثل والعبرة :

قال تعالى :

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٢] » .

رابعاً : والإسلام دعا إلى العلم ، وجعل طلبه عبادة ، ومدارسته تسبيحاً ، والبحث عنه جهاداً ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة .

وإذا كان الإسلام عظم من شأن العلم ، فلأنه عنصر من عناصر الشخصية القوية ، وسبيل إلى تقدم الحياة ، وترقى الإنسانية ، والوصول إلى تحقيق الرغبات بأقل جهد ، وفى أقرب وقت .

وإذا كان العلم بهذه المثابة فالمرأة والرجل فيه سواء ، لأنها مكلفة مثل الرجل من جهة ، ولحاجتها إلى استكمال شخصيتها من جهة أخرى .

ومن المعروف فى الإسلام أن كل ما فرضه الله على الرجل ، فهو مفروض على المرأة إلا فى بعض الأمور الخاصة بالنساء .

وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .

(٢) التحريم آية : ١١ .

[طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة] .

فهذا نص صريح فى وجوب تعلم المرأة والرجل العلم ، وأن ذلك مفروض عليهما فلو قصرا أو قصر أحدهما فى طلبه فهو آثم بسبب تقصيره ، فإن الله ما عصى بمعصية مثل معصية الجهل ، وما عبد بعبادة أسمى من عبادة العلم والمعرفة.

وأبلغ من هذا ، أن الإسلام دعا إلى تعليم الخادمات اللاتى لا يعنى بتعليمهن حتى ولو كانت الخادمة أمة من الإماء .

وبيّن أن الله يضاعف الأجر لمن يفعل ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أيُّمَا رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران(١)] .

وقد قرر الإسلام أن من حق الزوجة على زوجها أن يعلمها - إذا لم تكن متعلمة - ما يجب عليها علمه . فإن لم يعلمها وجب عليها أن تخرج بغير إذنه طلباً للعلم .

العلم الذى فرضه الإسلام على الرجل والمرأة :

والعلم الذى فرضه الإسلام على الرجل والمرأة ، هو ما نفع الانسان ونفع غيره ، فكل ما نفع الانسان فى نفسه ، وفتح أمامه آفاقا واسعة فهو من العلم النافع الذى ينبغى أن نحرص عليه ونهتم به .

وأهم ما ينبغى للمرأة أن تتعلمه فضلا عن العلوم الدنيوية ، هو أن تعرف من الدين ما يهذب نفسها ، ويدعوها إلى التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل ، ثم تتعلم من آداب المعاشرة ما تتحبب به إلى زوجها .

ومن أهم الأمور أن تتعلم كيف تدبر منزلها ، وتربى أولادها ، لتجعل من من بيتها جنة : ومن أولادها أبناء نافعين لأسرهم وأوطانهم .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى

النساء شقائق الرجال

أراد الإسلام أن يؤلف من المرأة والرجل عنصراً فعالا فى حياة الأمة فكلف النساء بما كلف به الرجال إلا فى بعض أعمال خاصة اقتضتها طبيعة المرأة.

وكان من أثر هذا التكليف أن برزت شخصية المرأة فى المجتمع الإسلامى فلم يكن عمل إلا وللمرأة نصيب فى الإسهام فيه .

فقد شاركت المرأة الرجلَ فى نشاطه الروحى، ونشاطه الاجتماعى ، ونشاطه السياسى والحربى .

١ – مشاركتها الرجل فى النشاط الروحى :

فقد كانت تحضر المسجد ، وتشاركه فى صلاة الجماعة ، وصلاة الجمعة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن يحاول أن يمنعهن عن المسجد :

[لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله] .

وصحيح أن الجمعة ليست بواجبة عليها تخفيفاً عنها ، ولكنها إذا صلتها صحت وأغنتها عن صلاة الظهر .

وكانت تشاركه فى صلاة العيدين ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر النساء بالخروج لحضور صلاة العيدين ،حتى الحُيَّض منهن ،ليشهدن الخير ودعوة المسلمين .

إلا أن الحُيَّض كن يحضرن دون أن يصلين ، فإن الصلاة تسقط عن الحائض كذلك كانت المرأة تشارك الرجل فى الحج، والعمرة ، والدعاء، والذكر، وقراءة القرآن « واذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ والْحِكْمَةِ إنَّ اللهَ كانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » (١)

(١) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

٢ ـ مشاركتها فى النشاط الاجتماعى :

وكانت المرأة تدفع الزكاة والصدقة ، وتعود المرضى، وترعى حق جيرانها . وتتعلم وتعلم ، وتنتقد الحكام مع الخلفاء وغيرهم ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

قد اعترضت امرأة على عمر رضى الله عنه حينما نهى عن التغالى فى المهر ، وأراد أن يضع لها حداً ، فقالت له امرأه : يا أمير المؤمنين أما سمعت الله يقول :

« وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا[1] » .

فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

والله سبحانه وتعالى بين أن النهوض بهذه التبعات من طبيعة المجتمع الإسلامى، وأن الرجل والمرأة فيها سواء ، فقال :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله »[2] .

وقد لاحظت النسوة أن حظ الرجال من الاجتماع بالنبى كان أوفر ، فطلبن منه أن يخصص لهن وقتاً معلوماً ، ليكون التلقى عنه أعم وأوسع ، فقلن :

[يا رسول الله .

غلبنا عليك الرجال . فاجعل لنا يوماً ، فجعل لهن يوماً يعظهن ويعلمهن ويذكرهن فيه]

وقد أسهمت المرأة مع الرجل فى حفظ القرآن وفهمه ورواية الحديث .

---

(١) النساء آية : ٢٠ . (٢) سورة التوبة آية : ٧١ .

ونبغ منهن الأديبات ، والشاعرات ، والمؤلفات فى العلوم والفنون ، ولاسيما زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كن يعلمن النساء ، ويفتين لهن ، ويرشدهن إلى ماينبغى فعله ، وما يلزم تركه ، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يرجعون إليهن ، ويسألونهن فيما يرونه مشكلا عليهم من الأحكام الدينية ولا سيما عائشة .

قال أبو بردة بن أبى موسى الأشعرى :

« ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه » ..

وكانت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونها عن المواريث والفرائض .

وعن عروة عن أبيه قال :

ما رأيت أحداً أعلم بفقه ، ولا بطب ، ولا بشعر ، من عائشة . . ، وما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعراً .

٣ — نشاطها فى الجهاد السياسى :

أما بالنسبة للقتال . فإن الاسلام أعفاها من فريضته ، ولم يلزمها به . . . ولكن لها أن تخرج مع الجيش ، لتقديم الطعام والشراب ، وتضميد الجروح وإسعاف المصابين ، والتحريض على القتال والثبات .

وكانت السيدة فاطمة ، بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، تخرج مع غيرها من النساء لهذه المهمة ، وكانت تحمل القرب على ظهرها ، لتسقى العطشى .

وأما بالنسبة للسياسة فقد أعطاها الاسلام الحق فى تأمين من ترى من الأعداء المحاربين ، وإذا أمنته فلا يحل لأحد أن يعتدى عليه .

قالت أم هانىء بنت أبى طالب ، عم النبى صلى الله عليه وسلم ، يوم فتح مكة :

يارسول الله قد أجرت — أى أمنت — رجلين .

فقال لها صلى الله عليه وسلم :

[قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء]

٤ — الرسول يبايع النساء :

لما كان فتح مكة سنة ثمانية من الهجرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، نزلت آية الممتحنة خاصة ببيعة النساء . وهذه الآية هى قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١] » .

فبايع الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام والجهاد ، فلما فرغ من بيعتهم بايع النساء .

وثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر ومعه عمر بن الخطاب عند الصفا بمكة ؛ فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً . قالت هند زوجة أبى سفيان :

والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال[٢] .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا يسرقن .

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٢ .

(٢) كانت بيعة الرجال الذى أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فى هذا اليوم على الإسلام والجهاد .

فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هنات فلا أدرى أيحل لى أم لا ؟

فقال أبو سفيان — وكان حاضراً — ما أصبت من شيء فيما مضى ، وفيما غبر فهو لك حلال .

فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفها — وكانت قد حضرت متنكرة[1] فقال لها :

وإنك لهند بنت عتبة .

قالت : نعم، فاعف عما سلف . عفا الله عنك .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ولا يزنين .

فقالت : أو تزنى الحرة ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ولا يقتلن أولادهن .

فقالت ربيناهم صغاراً ، وقتلتوهم[2] كباراً ، فأنتم وهم أعلم .

فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن[3] .

فقالت هند : والله إن البهتان لقبيح . وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

---

(١) كانت قد شقت بطن سيدنا حمزة فى غزوة أحد وأخرجت كبده ومضغتها فلم تسغها .

(٢) كان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر .

(٣) تنسب ولدا الى زوجها وليس منه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ولا يعصينك فى معروف .

فقالت عندئذ : ماجلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء فأقر النسوة بما أخذ عليهن] .

٥ — مشاركتها الرجل فى أعماله :

هذه هى الأعمال التى يلتقى عليها الرجل والمرأة فيما لايتعارض مع طبيعتها وأنوثتها .

أما الأعمال التى تتعارض مع هذه الطبيعة ، وتتنافى مع هذه الأنوثة ، فإن الإسلام لايرحب بها ، وقد كفل لها حياة كريمة فى ظل تشريعاته الحكيمة العادلة ، فضمن كفايتها إذا كانت فى كنف والدها ، أو فى بيت زوجها .

ففى الحالة الأولى يكلف الوالد بالإنفاق عليها ، فإذا خرجت إلى بيت الزوجية فنفقتها واجبة على زوجها ، فإذا فقدت الولى والزوج فعلى الدولة أن تقوم بهذه الرعاية إذ لم يكن لها مال تنفق منه ، ولا يكلفها الإسلام أن تقوم بالأعمال التى هى من خصائص الرجال وحدهم .

ووجهة نظر الإسلام فى هذا تتلاقى مع فطرة المرأة وطبيعتها، وقد أيد ذلك العلم الحديث .

وللأستاذ الكبير محمد فريد وجدى فى هذا الموضوع كلام أوفى على الغاية من الخير أن نسجله فى هذا المقام .

قال رحمه الله :

أما مشاركتها للرجل فى أعماله الخارجية ، فإن الفطرة المجردة ، والعلوم العصرية نفسها تنافيها . وترى فيها خطراً عظيما على المجتمع .

فأما الفطرة فإنها تأبى أن ترى المرأة التى اختصها الخالق بمهمة تكثير النوع

الإنسانى وتربيته ، تتكلف فوق ما تعانيه من المشاق مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة ، وأن تهجر دارها ساعات طويلة ، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم فى الشوارع والأزقة ، وهم فى أشد الحاجة إلى حمايتها ورعايتها .

هذا أمر يأباه مجرد الفطرة ، لذلك ألهم الناس من أقدم عهودهم أن يضنُّوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية ، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية . . . اللهم إلا همجاً متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية ، والاسترالية ، فيجلس رجالهم لايعملون شيئاً ويسرحون نساءهم ليجابن لهم ما يتسنى لهن جلبه من جذور الأشجار وأوراقها وما يصطدنهُ من بعض الحيوانات الصغيرة ليقتاتوا بها ، كما تفعل الوحوش الضارية . فهؤلاء لايقام لهم وزن ، ولا يعبأ بهم فى استدلال .

وأما العلم : فقد قال كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولا يزال أقطابه يرددونها فى كل مناسبة . وإنا نؤتى القارىء خلاصة من ذلك مستخرجة من كتاب [النظام السياسى على مقتضى الفلسفة الوضعية] للفيلسوف الكبير أجوست كومت الفرنسى واضع تلك الفلسفة ومؤسس علم العمران . قال :

« ينبغى أن تكون حياة المرأة بيتية ، وألا تتكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ، ويفسد مواهبها الفطرية ، وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملا مادياً ، كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة ، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم ، كذلك يحتاج النساء لمثل تلك الأوقات ليتفرغن فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية من حمل ، ووضع ، وتربية .

ومن جهة أخرى فإنه لو سمح للنساء على ضعفهن أن يشتغلن خارج بيوتهن لتعرضن لمنافسة قوية من جانب الرجال فلا ينلن بجانبهن إلا الحثالة التى يعفُّون

عنها ، فيقعن فى التافه ، ولا يجدن القوت إلا تباغاً ، بله الضرر الفادح ، الذى يحيق بمجتمعاتهن من جراء خروجهن على نظام الطبيعة وعصيانهن لنواميس الحياة الصحيحة » .

هذا رأى العلم الحق ، أما ما يكتب ضده ، وينقله عنهم المتونون بالمظاهر منا . فهو رأى جمهرة من قصصيين ، وكتاب إباحيين ، يسوغون للمرأة أن تخرج على مقتضى الفطرة ، ويخدعون السطحيين من القراء عن الحقائق العلمية. وغرضهم من ذلك ترويج كتاباتهم بدعوى تجديد الحياة الاجتماعية ، والخروج مما رثّ وبلى من التقاليد لوراثية .

وقد أثرت هذه الكتابات فى أوربا والشرق ، بسبب ان الناس ميالون إلى قراءة الأقاصيص ، والكتابات السطحية التى توافق غرائزهم الشهوانية ، فتكوّن رأى عام على أصالة هذه النظرية ، فاندفع الناس فى تحقيقها اندفاعاً جنونياً ، فهجر النساء الدور وأقبلوا على الأعمال الخارجية ، وكان من أثر هذا الاختلاط ذيوع عادات لا تتفق والحياة الصالحة ، كانت شراً مستطيراً على الزواج المشروع . فكثر الأخدان والخدينات ، وطمت العلاقات الخائنة بين الجنسين ، وشاعت العزوبة بين الشبان ، وأصبح التبرج المخالف للذوق السليم عادة مألوفة ، واستهتر الناس فى ذلك حتى أصبحوا يرون أن بروز النساء نصف عاريات ضرب من ضروب الأناقة ، ووجه من وجوه الظرف ، وحتى صار مما يروقهم أن تصور لهم الجرائد اليومية التى يقرءونها صور الخليعات المتهتكات ، فيصرفوا فى التأمل فيها وقتاً ثميناً ، ويدعوها لأبنائهم وبناتهم غير خائفين أن ذلك يؤثر فى آدابهم تأثيراً شنيعاً .

ولكن الإنسان متى اعتاد شيئاً ألفه ، ترقى فيه وأبلغه إلى أقصى أطواره ، فانتهى أمره ، بأن لايقنع بالعرى النصفى ، فأوجد العرى الكامل فى بعض

المسارح التى يتردد عليها . فهل وقف به التطور فى الخنا إلى هذا الحد ؟ : لا ؛ ولكنه أبى إلا أن يبلغ به إلى مابعده .

فابتكر مبدأ العرى فى الأحوال العادية . لا على المسرح فحسب، وأسس أندية له فى أكبر عواصم بلاد المدنية يجتمع فيها رجال ونساء . فيتجزدون من ثيابهم ويمضون ساعات طويلة على تلك الحالة فى محاضرات وألعاب رياضية ، وما تجر إليه من ضروب المنكرات ، ثم يلبس كل منهم ثيابه ويعود إلى بيته .

نعم : إن الحكومات تضيق الخناق على هذه الأندية ، وتطارد أصحابها ـ ولكنها عاجزة عن ملاشاتها ، وهى تزيد انتشاراً يوماً فيوماً .

أفتظن أن تطورات الإنسان فى هذا الباب تقف عند هذا الحد . . . ؟ اللهم لا . إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان ، من حدوث قوارع جائحة ، ومَثُلات ماحقة ، يقتضيها هذا العمل الحيوانى البحت ، فيرد أصحابه عنه صاغرين .

« ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [1] » .

هذا ولو دقق الباحث فى شئون العالم ، وشخص علل المجتمعات العصرية تشخيصا علميا دقيقا ، لرأى أن أكثر ما تشكو منه هذه المجتمعات من تدهور أدبى ،وتعقد اجتماعى، واضطراب مالى، منشؤه تسامحها فى تهتك النساء، وتركها حبالهن على غواربهن .

نعم إن من غرائز المرأة التصون ، ولكن الرجل لا يفتأ يخدعها بالمسولات

---

(١) سورة الروم آية ٤١ .

والمغريات ؛ ليميت هذه الغريزة فيها ، ويطوح بها إلى ميدان الإباحة ، وقد نجح في إغوائها إلى حد بعيد .

فهي اليوم تتبع خطواته . ولكنه قد بدأ يتبرم بها ،حتى إن أشد المولعين بِفِتْنَتِهَا أخذ يشهِّرَ بتهتكها، ويبنى أقاصيصه على إغراقها فى تبذلها .

وقد خسرت المرأة من استسلامها لهذه الآراء الضالة ، كل مميزاتها ، ولم تستعض عنها شيئا مما وعدها به مضللوها .

كانت المرأة مُمَنَّعة فى ستر من العزة فأصبحت بهذا التهتك مبتذلة، والتهتك فى حقيقته مبالغة فى عرض النفس — وكل معروض مهان — كما لا يخفى ، والإضراب عن الزواج مظهر من مظاهر هذا الهوان . فكأن المرأة بكثرة عرضها نفسها على الرجال قد فقدت أعز شىء عليها ، وهو عرشها .

وكانت المرأة فى الدار حاجة من حاجات النفس يسكن إليها الرجل ليروِّح عن نفسه فأصبح الرجال لكثرة اختلاطهم فى الحياة العملية بالنساء ، يتطلبون وقتا يخلون فيه لأنفسهم بعيدين عنهن ، فكرهوا الزواج ، وأرادوا أن تكون بيوتهم خلوا منهن ،لأنه لم يبق معنى الاستمرار العيش معهن خارجا وداخلا .

وكانت المرأة تدخر لأداء أسمى مهمة فى العالم ، وهى تربية الصغار . وتلقينهم مبادىء الآداب ، وأصول الأخلاق ، وقد أطنب الفلاسفة والمربون فى خطورة المدرسة البيتية ، فجردت المرأة بتأثير هذه التعاليم الفاسدة من وظيفتها الشريفة ، وأسندت إليها وظائف مبيدة لكرامتها النسوية فى المراقص والمقاهى، ودور التمثيل والسينما ، وتستر الإباحيون وراء كلمة الفنون الجميلة ، فأحدثوا انقلابا خطيراً فى حياة المرأة ستجنى الإنسانية شروره أجيالا طويلة .

هنا يثور علينا ثائر : فيرفع عقيرته قائلا :

أنتم تريدون أن تسجنوا المرأة ، وأن تذلوها ، وأن تستغلوا مواهبها ، وأن

تسلبوها استقلالها ، وأن تجردوها من كل عمل تـكسب به قوتها ، وتحتل به مكانها تحت الشمس .

كلمات جوفاء استخدمها هؤلاء الثائرون على نظام الطبيعة ، فى استدراج النساء إلى الحياة الإباحية ، ولا يزالون يستعملونها لستر خطيئتهم الفادحة ، ولـكن على من كل هذه الثرثرة ؟ . أعلى أرفع الناس عقولا من الفلاسفة والاجتماعيين ؟ أم على الذين يرون بأعينهم المخازى التى جنوها على مجتمعاتهم، وضاعت فيها حيل المصلحين ... إن الناس يشهدون اليوم تدهورا خُلُقِيًّا . وانحطاطا أدبيا . لم يرو تاريخ البشر له مثيلا .

فإذا كانت حياة النوع البشرى لا تقوم إلا بانغماسه فى هـذه المقاذر فأهْونْ بها من حياة، تموت معها جميع الغرائز الانسانية الـكريمة ، من الغيرة على العرض ، والحرص على الـكرامة ، والترفع عن الفحشاء ، والتنزه عن النقيصة .

لو كان الانسان خلق بهيما لعاش عيشة البهائم . ولما ثار على هذه المقاذر ، ولـكنه خلق إنسانا . فهو كما يشعر بشهوات جسمانية، وأهواء نفسية، كذلك يشعر بمميزات معنوية لم يمنحها الحيوان . ومنحها الانسان لتصده عن النزوات البهيمية .

فالإنسان قد ينحط، وينحط ، ويتغلغل فى الإنحطاط إلى أبعد حد ، ولـكنه لا يفقد مميزاته المعنوية ، مهما أراد أن يفقدها . فلا تزال به حتى تريه تلك المقاذر على حقيقتها، فيثور عليها، ويدفعها عن نفسه، فى شىء كثير من العنف والجبرية .

ودليلنا على هذا أن الإنسان كثيرا ماسقط فى مهاوى الرذيلة . حتى ظن أنه لن يخرج منها . وأنها قتلت كل مافيه من غرائز شريفة ، ولـكنه لم يلبث أن نفضها عن عاتقه وخرج منها يتطلب الحياة الصحيحة . ولو كان الأمر جاريا على غير هذه السنة لما رأت للفضائل دولة فى الأرض بعد أن بلغت الرذيلة أقصى مداها فى أدوار كثيرة من البشرية :

فأما مايشنعون عليه من سجن المرأة وإذلالها ، وسلبها استقلالها ، فتلك صيحات يقصد بها التهويل ، وطمس معالم الحقائق . وإلا فكيف يتخيل الناس أن قصر المرأة على مملكتها البيتية سجن وإذلال لها ؟ وهل يطالبها المصلحون المعاصرون بغير ذلك ؟ وإذا كان يفهم أن اشتغال الإنسان بما خلق له سجن له ، فكلنا إذن مسجونون من أول المؤلف فى مكتبه ، إلى المعدِّن فى منجمه ، وإذا كان هذا يستقيم فى الفهم فلتعتبر المرأة مسجونة ، كجميع أبناء نوعها ؛ إذ لاوجه لاستثنائها منهم .

أما استقلال المرأة ، فلا يعنى فى علم الاجتماع شيئاً غير الشذوذ عن الرُّبُط الاجتماعية ؛ فإن المرأة خلقت لتكون زوجة ، والزوجية تفرض على كلا الزوجين التزامات متبادلة . فلا معنى للاستقلال هنا ، مع وجود هذا الترابط الوثيق بين الاثنين ، ولكن لما كان القصصيون الذين لا شغل لهم إلا فى الكلام عن الحب ، والمحاولات الغرامية والخيانات الزوجية ، فهم يلوحون بهذا الاستقلال للمرأة ، ليسوغوا لها الخروج على الالتزامات الزوجية ، بل وعلى نظم الطبيعة نفسها ، وإذا كان مملى النظم الاجتماعية هم الأدباء والقصصيون ، فعلى الاجتماع البشرى العفاء وسوء المنقلب .

ويقولون : أتريدون أن تجردوا المرأة من كل عمل تكسب به قوتها ؟

ونقول نحن : لا ؟ فإننا نريد أن تكسب المرأة قوتها من طريق الزوجية ؛ لأن الله خلق النساء على عدد الرجال ، مع تفاوت لا يعتد به ، هنا تارة وهناك تارة أخرى ، ولكنكم أنتم بتسويلاتكم لها الخروج والتبرج والاختلاط بالرجال ، قد عملتم من طريق غير مباشر على إشاعة العزوبة كما قدمنا ، وشيوع العزوبة يفضى إلى وجود جيوش من النسوة لا يجدن القوت ، فيضطررن للعمل مع الرجال ، والعمل مع الرجال يزيدهم إغراقاً فى العزوبة للأسباب التى لا تخفى على أحد .

فأنتم الذين قضيتم على المرأة بأن تذل فى العمل الخارجى ، نعم : هو إذلال لها أى إذلال ، فإنها لم تخلق لتمتهن كبائعة ، أو كاتبة ، أو سائقة أتوموبيل ، أو سمسارة ، أ حوذية ، الخ . . الخ .

ولكنها خلقت لتكون ربة بيت ، وإن هذا البيت لو كان كوخاً حقيراً فهو أكرم لها ، وأحفظ لميزاتها، من أن تكون بائعة ، أو كاتبة أو سكرتيرة؟ ولسنا ننكر أن المجتمع مهما بالغ فى المحافظة على النظام الطبيعى حيال النساء فسيوجد منهن من يعوزها القوت ، ولكن عدد المعوزات يكون قليلا ، يمكن الحكومة الرشيدة من تدبير أعمال لهن تليق بكرامتهن .

ولكنكم أيها الثائرون لا يعنيكم قوت المرأة. وإنما يعنيكم أن تجدوا بطلات لأقاصيصكم من المائلات المميلات ، وما لكم والنساء العاملات اللاتى تلفح وجوههن النار ؟

فليس مقصدكم المدافعة عن النساء ، ولكن إخراجهن من خدورهن .

وما إكثاركم من ذكر استقلالهن وحقوقهن إلا ستراً لمبادئكم الإباحية ، وقد فطنت أوربا وأمريكا لما يبتنى على عمل المرأة وحريتها المفرطة ، واستقلالها من المضار على الشئون الاقتصادية ، فأخذ مصلحوها ، يضعون حداً لعملها الخارجى ، ويدعونها للدخول فى خدرها . وقد أخذت هذه التحوطات شكلا عملياً فى كثير من الأمم الصناعية ، كالولايات المتحدة — وألمانيا — وإيطاليا — ولا بد من أن تبلغ أقصى غايتها فى مستقبل ليس بالبعيد .

هنا يسوغ لى أن أرفع صوتى عالياً ، مؤكداً أن الفطرة الإنسانية الكريمة أحكم من أن تقع فى هذه الفخاخ الشيطانية ، فتدع هذه المدنية التى حصلتها ببذل جهود جبارة، وفى قرون عديدة ، تنحل وتتلاشى تحت تأثير السبب نفسه. الذى حل وَلاَشَى المدنية الرومانية من قبل : وهو تبرج النساء ، وطغيان الميول

الإباحية . فإن عجز المصلحون عن قمع هذه الميول ، فليست هذه المدنية بأكرم على الله من المدنيات التى سبقتها ، فإنها تنوء تحت عللها القاتلة ، وتصبح كأن لم تكن شيئاً مذكوراً — وتحل محلها مدنية يعرف أهلها كيف يحافظون على الحدود التى حدها المبدع الحكيم للخلق .

« وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » .

شهادة أستاذة جامعية :

وقد أيد هذا ما نشرته صحيفة الأهرام[1] تحت عنوان : أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج . قالت الأهرام :

أستاذة جامعية فى انجلترا وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها ، تلقى خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس .

قالت الأستاذة :

ها أنا قد بلغت الستين من عمرى ، وصلت فيها إلى أعلى المراكز ، نجحت وتقدمت فى كل سنة من سنوات عمرى ، وحققت عملا كبيراً فى المجتمع . كل دقيقة فى يومى كانت تأتى على بالربح . حصلت على شهرة كبيرة ، وعلى مال كثير ، أتيحت لى الفرصة أن أزور العالم كله ، ولكن ، هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات ؟!

لقد نسيت فى غمرة انشغالى فى التعليم والتدريس ، والسفر والشهرة ، أن أفعل ماهو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة . .

نسيت أن أتزوج ، وأن أنجب أطفالا . وأن أستقر .

إننى لم أتذكر ذلك إلا عند ماجئت لأقدم استقالتى شعرت فى هذه اللحظة

---

(١) فى العدد الصادر يوم ١٩٦١/٥/٢٩ .

أننى لم أفعل شيئاً فى حياتى . وأن كل الجهد الذى بذلته طول هذه السنوات قد ضاع هباء .. فسوف أستقيل ، وسيمر عام أو اثنان على استقالتى ، وبعدها ينسانى الجميع فى غمرة انشغالهم بالحياة .

ولكن :

لو كنت قد تزوجت ، وكونت أسرة كبيرة ، لتركت أثراً أكبر وأحسن فى الحياة .

إن وظيفة المرأة الوحيدة هى أن تتزوج ، وتكون أسرة ، وأى مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له فى حياتها هى بالذات . إننى أنصح كل طالبة تسمعنى أن تضع هذه المهام أولا فى اعتبارها .

وبعدها تفكر فى العمل والشهرة !

ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ

يحرص الإسلام على عفة النفس ، ونظافة الخلق، وصيانة العرض والشرف.. وهو من أجل تحقيق هذه الغاية ، دعا كلا من الرجل والمرأة إلى الاتصاف بالخصال الطيبة ، والآداب الفاضلة ، ليكون الرجل والمرأة عضوين نافعين فى الأمة ، فضلا عن السعادة النفسية التى يظفر بها كل منهما .

إلا أن الإسلام قد لاحظ الفوارق الطبيعية بين الرجل والمرأه ، ووظائف الذكر والأنثى .

فخص النساء ببعض الآداب لحفظ شرفهن وصيانة كرامتهن ، وسداً لذريعة الفساد ، ومنعاً من تعدى سفهاء الرجال، ومحاولتهم إفسادهن، والتعدى عليهن.

ومن هذا الأدب الخاص بالمرأه المسلمة :

الاحتشام ، والستر ، صيانة لها عما يخدش شرفها ، ويبعد عنها الريبة وسوء الظن . .

ومنه : عدم الخلوة بالرجال الأجانب ، سداً لذريعة الفساد . . .

ومنه : ترك التشبه بالرجال . .

١ — ملابس النساء :

أما ما يتصل بالاحتشام ، فإنه يتحقق بلبس الملابس التى لا تصف ، ولا تشف . .

والملابس التى لا تصف ، هى الملابس الفضفاضة الواسعة ، بحيث لا تحدد أعضاء الجسم ، ولا تبرز أجزاء البدن .

وأما الملابس التى لاتشف ، فهى الملابس الثخينة ، التى لاينكشف ماتحتها .

يقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ[1] ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[2] » .

وسبب نزول هذه الآية[3] : هو أن المؤمنات الحرائر كن يلبسن ملابس تشابه ملابس الإماء الفواجر جريا على عادات الجاهلية ، وكانت هذه الملابس عبارة عن قميص وغطاء للرأس ، وكثيراً ما كانت المرأة تلقى غطاء الرأس على رأسها ، وتسدله من وراء ظهرها ، وتترك فتحة القميص دون أن تزررها بشيء ، فيظهر صدرها ونحرها ويبدو ذلك للناس .

فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يأمر أزواجه وبناته وسائر نساء المؤمنين ، بأن يسترن أبدانهن بجلابيبهن ، وأن يغطين رؤوسهن وصدورهن ، كى يعرفن أنهن مؤمنات حرائر ، فلا يتعرض لهن الفساق بأذى ، ولا يكون للخبثاء عذر فى تعمد مغازلتهن .

وجاء فى سورة النور قول الله سبحانه :

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

---

(١) الجلباب : الملاءة تلبس فوق الثياب ونحوها . (٢) سورة الأحزاب الآية ٥٩

(٣) كما ذكره المفسرون .

أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١) ».

وهذه الآية تتضمن عدة معان :

منها : أن الله أمر المؤمنات بأن يغضضن من أبصارهن ، فلا يحل لهن أن ينظرن إلى الرجال نظرة شهوة ، ولا إلى العورات . وإذا حصل أن وقع النظر على ما لا يحل فيجب عدم استدامته فالنظرة الأولى لا حساب عليها ، والثانية فيها الحساب . وفي الحديث : فإن لك الأول وعليك الثانية .

والأمر بالغض من أجل تجنب الإغراء والبعد عن الفتنة ودواعيها .

ومنها : صيانة النفس بالعفة وتجنب الفحش .

ومنها : عدم إبداء الزينة للرجال الأجانب إلا ما ظهر منها ، لضرورة التعامل والقيام بالأعمال المشروعة . .

وما ظهر منها هو الوجه والكفان والملابس الظاهرة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت أسماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها ، وقال :

[يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه (٢)] .

---

(١) سورة النور الآية ٣١ .

(٢) رواه أبو داود وقال: هذا من مراسيل خالد بن دريك .

وضرب الخمار على الجيوب ، معناه : ستر الرأس والصدر والنحر ، لعدم الحاجة إلى إظهارها ، وكثيراً ما يترتب على كشفها الإثارة والفتنة .

وقد جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البُخْتِ المائلة لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها[1] ليوجد من مسيرة كذا وكذا . . .]

والله يقول :

« وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ[2] » .

والتبرج : هو إظهار الزينة ، وإبراز المفاتن ، وذلك عودة للجاهلية الأولى.

وأما الذين استثناهم الله وأباح لهم أن ينظروا إلى زينة النساء فنهم :

أولا : محارم المرأة ، كالأب ، والإبن ، والأخ ، وابن الإبن ، وابن الأخ ، وابن الأخت إلى آخر ماذكر .

ثانياً : الرجال الذين لاحاجة لهم فى النساء ، كالشيخ الكبير ومن به مرض طبيعى يحول بينه وبين فتنة النساء .

ثالثاً : الأطفال الذين لم يفطنوا لعورات النساء ، وليس لهن رغبة فى الاطلاع على محاسنهن .

وأما قوله تعالى :

« ولاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ[3] » .

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم. ومعنى كاسيات عاريات يكشفن بعض أبدانهن ويسترن البعض الآخر كما نرى فى هذه الأيام .

(٢) سورة الإحزاب آية : ٣٣ (٣) سورة النور الآية ٣

فمعناه : النهى عما كان يفعله بعض النساء فى الجاهلية ، لتنبيه السامع بما فى أرجلهن من الخلاخل ، ليلفتن النظر إليهن ، وينتبه لهن .

هذه بعض آداب المرأة المسلمة التى أدبها الله بها ، ليصونها عما يخدش شرفها ويحفظ عليها حياءها وعفافها .. والشرف ، والحياء ، والعفاف ، أعز ماتماسكه المرأة وأجل ما تحرص عليه .

٢ — خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية :

أما مايتصل بخلوة المرأة بالرجل الأجنبى ، فإن الإسلام نهى الرجل أن يخلو بالمرأة ، سداً لذريعة الفساد ، وبعداً عن الفتنة ، وإتقاء لما عسى أن يقع من اقتراف ماحرّم الله .

ومن المعلوم أن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز وأعنفها ، وما من شك فى أن اجتماع الرجل والمرأة فى مكان خال من شأنه أن يثير النفس ، ويدعو إلى ارتكاب الإثم ، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى فى قوله :

[إياكم والدخول على النساء ، فوالذى نفسى بيده ماخلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما[١]] .

ولنتصور مدى الإغراء فى مجلس يحضره الشيطان ، وهو قائد الشرور ، وداعية الإثم والفجور .

وإذا كان مع المرأة زوجها أو أحد محارمها ـ فإنه يحل للرجل الأجنبى أن يحضر مع المحافظة على غض البصر ، وعدم التطلع إلى العورات ، فإن ذلك أسلم للقلب ، وأطهر للنفس . قال الله تعالى :

---

(١) حديث غريب رواه الطبرانى .

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ[1] » .

أى أن غض البصر ، وحفظ الفرج ، أطهر لنفوسهم وأبعد لها عن الرجس .

وقد أباح الاسلام للرجل الأجنبي أن يحضر في هذه الحالة ، لامتناع حصول مايتوقع من مقارفة المحظور . فإن وجود الزوج أو أحد المحارم بمنزلة صمام الأمان الذى يؤمن مع وجوده ـ الخوف من وقوع المكروه . وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم [لايخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم[2]] .

وأما الْمَحْرَم فإنه يجوز له أن يخلو بالمرأة ، وهو الرجل القريب من الزوجة قرابة تمنعه من زواجها منعاً دائماً ، كالأخ ، والعم ، والخال ، والابن ، فهؤلاء وأمثالهم لا يتوقع منهم الاعتداء على العرض كما يتوقع من غيرهم ، ولهذا أبيح لهم ماحرم على غيرهم ، والرجل القريب من المرأة قرابة لا تمنعه من التزوج بها كابن العم وابن الخال ، حكمه حكم الأجنبي سواء بسواء . . فلا يحل له الخلوة بها إلا مع زوج أو محرم ، لأنه لا يؤمن مع الخلوة وقوع المحظور ، يقول الرسول : صلى الله عليه وسلم :

[إياكم والدخولَ على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحَمْوَ ، فقال : الحمو : الموت] .

والحمو : قريب الزوج ، كابن العم ، وابن الخال ، أى أنه يفسد الحياة الزوجية كما قد يفسد الموت البدن .

ولما كان السفر يعرض المرأة لمخالطة الرجال ، وقد يكون فى المخالطة ما يخدش كرامتها ، ويعرضها لما ينبغى أن تصان عنه ، منعها الإسلام من السفر إلا مع محرم .

---

(١) سورة النور آية ٣٠ (٢) رواه البخارى ومسلم .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
[لاتسافر امرأة إلا مع ذى محرم(١)].
وجاءه رجل فسأله فقال :

[إنى أريد الجهاد ، وامرأتى تريد الحج ، فأمره أن يترك الجهاد ويسافر مع امرأته] .

والواقع يؤيد هذا ويشهد له ، فإن المرأة لتجد فى الفنادق ، والبواخر ، والانتقال من مكان إلى آخر ، مايغرى بها الرجال ، مالم يكن معها زوجها أو ذو محرم .

٣ — تشبه النساء بالرجال :

وقد أراد الإسلام أن تكون طبيعة المرأة متميزة ، وأن يكون مظهرها صورة صادقة لهذه الطبيعة .

كما أراد ذلك للرجل ـ فنهى كلامنهما أن يتشبه بالآخر ، وحرم عليه ذلك .
وسواء أكان التشبه فى اللباس ، أم الكلام ، أم الحركة ، أم غير ذلك .
عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

[لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء](٢) .

وفى رواية :

[لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال] رواه البخارى .

وروى أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم عن أبى هريرة قال :

[لعن رسول الله الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل] .

---

(١) رواية البخارى ومسلم
(٢) المخنث : من فيه انخناث وهو التكسر والتثنى كما تفعل النساء .
والمترجلة : هى التى تتشبه بالرجل فى الهيئة والقول والفعل والأحوال .

الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم

الأبناء أمانة وضعها الله بين يدى الآباء ، وهم مسئولون عنها ، فإن أحسنوا إليهم ، بحسن التربية ، كانت لهم المثوبة . وإن أساءوا تربيتهم استوجبوا العقوبة . فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[كلكم راع وكلكم مسئول على رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته] .

والأبناء يخلقون مزودين بقوى فطرية تصلح أن توجه للخير ، كما تصلح أن توجه للشر ، وعلى الآباء أن يستغلوا هذه القوى ويوجهوها وجهة الخير ، ويعودوهم العادات الحسنة ، حتى ينشأ الطفل خيراً ينفع نفسه وينفع أمته .

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا [1] » .

ووقاية النفس والأهل من النار تكون بالتعليم والتربية ، وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة ، وإرشادهم إلى ما فيه نفعهم وفلاحهم . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم] .

وفى هذا الحديث إرشاد إلى ما ينبغى أن يكون عليه الآباء من ملازمة

---

(١) سورة التحريم آية : ٦ .

أولادهم ليكون تصرف الأبناء تحت نظر الآباء وإشرافهم، فإذا تصرف أحدهم أى تصرف يحتاج الى توجيه كان ذلك التصرف موضع العناية والنظر .

١ — مساواة الذكور والاناث فى التربية :

وإن الإسلام لا يفرق بين الذكور والأناث فى هذه الناحية ، فلكل من الجنسين الحق فى أن يتربى، وفى أن يتعلم العلم النافع ، ويدرس المعارف الصحيحة ، ويأخذ بأسباب التأديب ووسائل التهذيب؛ لتكمل إنسانيته ، ويستطيع النهوض بالأعباء الملقاة على عاتقه .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من كانت له ابنة فأدبها فاحسن تأديبها،ورباها فأحسن تربيتها ، وغذاها فأحسن غذائها ، كانت له وقاية من النار] .

٢ — المقصود بالتربية :

والمقصود بالتربية : إعداد الطفل بدنياً وعقلياً وروحياً ؛ حتى يكون عضواً نافعاً لنفسه ولأمته .

والمقصود بالإعداد البدنى : تهيئة الطفل ليكون سليم الجسم ، قوى البنية ، قادراً على مواجهة الصعاب التى تعترضه ، بعيداً عن الأمراض والعلل التى تشل حركته وتعطل نشاطه .

ومعنى إعداده عقلياً : أن يهيأ كى يكون سليم التفكير ، قادراً على النظر والتأمل ، يستطيع أن يفهم البيئة التى تحيط به ، ويحسن الحكم على الأشياء ، ويمكنه أن ينتفع بتجاربه وتجارب الآخرين .

وأما إعداده روحياً : فمعناه أن يكون جياش العواطف ، ينبسط للخير

(١) يراجع هذا الفصل بتوسع فى كتابنا دعوة الإسلام .

ويفرح به ، ويحرص عليه ، وينقبض عن الشر ويضيق به ، ويفر منه .

٣ — الوسيلة لإعداد الفرد بدنيا :

والوسيلة التى وضعها الإسلام لجعل الفرد صحيح البدن ، بعيداً عن الأسقام والعلل ، والتى يجب على المربى أن يأخذ بها فى التربية ، تتلخص فيما يلى : —

١ — أن يحرص على النظافة فى البدن والثوب والمكان ؛ إذ أن النظافة ركن من أركان الصحة ، ودعامة من دعائمها .

٢ — أن يعود الطفل الأكل من الطيبات التى تغذى البدن وتقويه ، مع البعد عن الإسراف الذى يضر الجسم ويعرضه لكثير من الأمراض [كلوا واشربوا ولا تسرفوا [(١)]] .

٣ — أن يحبب إليه ممارسة الألعاب الرياضية ، مثل العدو ، والسباحة ، والرماية والمصارعة ، وركوب الخيل ، ولعب الكرة ، ونحو ذلك من الألعاب .

فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يسابق ويصارع ويرشد أمته إلى الأخذ بأسباب القوة .

٤ — الوسيلة لإعداد الفرد عقليا :

إن الإنسان لا يحيا بجسده وحده ، فإن حياة الجسد هى حياة الحيوان ، ولهذا وجب على المربى أن يعد الطفل عقلياً ، ويمكن تلخيص هذا الإعداد باتخاذ الوسائل الآتية :

١ — القراءة والكتابة والتعلم :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .

---

(١) الأعراف آية : ٣١

أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ[١] » .

٢ — التأمل والتفكير ، وهما ضروريان لتنمية العقل واستقلاله بالفهم والإدراك .

٣ — السياحة، والرحلة، والتنقل فى الأرض ، فإن ذلك يفيد علماً جديداً ومعرفة صحيحة .

٥ — وسائل الإعداد الروحى :

وتتلخص فيما يلى :

١ — إبراز قيمة الفضائل وآثارها الفردية والاجتماعية ، وإظهار مساوىء الرذائل وآثارها أمام الطفل بقدر ما يتسع له فهمه .

٢ — أن يكون الآباء أنفسهم مثلا صالحاً لأبنائهم . فإن الأطفال من عاداتهم أن يتشبهوا بآبائهم ويحاكوهم فى أقوالهم وأفعالهم .. والقدوة الصالحة . ما هى إلا عرض مجسم للفضائل . .

وإن الطفل الذى يرى والديه يهتمان بأداء الشعائر والبعد عما يخل بتعاليم الدين . مثل الكذب ، والغدر ، والنميمة ، والأثرة ، والبخل ، وغير ذلك من الصفات الذميمة . لابد وأن يتأثر أثراً بالغاً بما يراه ويشاهده من والديه .

٣ — تلقين الطفل مبادىء الدين وتمرينه على العبادات ، وتعويده ممارسة فعل الخير ، فإن ذلك يجعل منه نواة صالحة لمجتمع سليم راق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة العلق من آية ١ : إلى آية : ٥

[مروا أولادكم بالصلاة لسبع اضربوهم عليها لعشر . وفرقوا بينهم فى المضاجع] .

٤ — على الآباء أن تكون معاملتهم لأولادهم قائمة على أساس الملاطفة وخفض الجناح .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه أن يعاملوا أولادهم بالرفق واللين، ويضرب لهم المثل بما يمارسه هو بنفسه، فقد كان يصلى يوماً إماماً، فارتحله الحسن ابن بنته ، السيدة فاطمة رضى الله عنها ، فأطال السجود ، فلما فرغ قالت الصحابة : يارسول الله ، أطلت السجود؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

[ان ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله] .

وقبّل صلى الله عليه وسلم طفلا من أبناء بناته ، فقال رجل من الأعراب : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لى عشرة من الولد ماقبلت واحداً منهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قبلك] .

أى ما أستطيع أن أفعله معك وقد غاض نبع الرحمة من قلبك ؟

٥ — ومما هو ضررى ، أن يحبب الآباء أبناءهم فى اختيار الأصدقاء الأخيار ومزاملة أصحاب الخلق الفاضل ، فإن الأطفال يحاكى بعضهم بعضا ، ويتشبه كل بالآخر .

ولنختم هذا الفصل بعرض النموذج الصالح للتربية الحسنة ، التى حكاها القرآن عن لقمان الحكيم :

« وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ . وَهُوَ يَعِظُهُ[1] .

(١) يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . . .

---

(١) سورة لقمان آية ١٣

(٢) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ . فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ . إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

(٣) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ...

(٤) وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ . . . .

(٥) وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...

(٦) وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ . . .

(٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . .

(٨) وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . . .

(٩) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

(١٠) وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »[١] .

---

(١) سورة لقمان آية ١٦ إلى آية ٩

وبالوالدين إحسانا

حق الآباء من أعظم الحقوق :

إن حق الوالدين على الولد هو أجل الحقوق وأعظمها بعد حق الله سبحانه . لأن الله إذا كان هو الخالق الحقيقي للولد ، فإن الوالدين هما مصدر هذا الخلق وسببه المباشر ، ولأنهما بذلا من التضحيات والجهود من أجل تربيـة الأولاد وإعدادهم للحياة مايستحقان المكافأة عليه .

وهذه الحقوق الواجبة على الأولاد لآبائهم ، تتمثل فى بر الآباء ، والإحسان إليهم ، والأدب معهم ، وطاعتهم فى المعروف .

وقد جاء الإسلام داعياً الأولاد إلى النهوض بهذه الحقوق نحو آبائهم ولافتاً أنظارهم إلى القيام بها ، ليكونوا بررة مستحقين لبرّ الله ومثوبته .

فمن ابن مسعود، قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم:

[أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى ؟ . قال : بر الوالدين . قلت ثم أى ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله][1] .

ويقول الله سبحانه :

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبِالْوالِدَيْنِ إِحْسانًا [2] » .

ويقول عزّ وجل :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) الآية ٣٦ من سورة النساء .

يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا[1] » .

وقد تضمنت هذه الآيات :

١ — الأمر بالإحسان إلى الوالدين مقابل إحسانهما إلى الولد ، وجزاء فضلهما عليه ، واقتران ذلك بالأمر بالعبادة .

٢ — والنهي عن نهرهما بغلظة ، وزجرهما بخشونة ، وعن كل ما يُتضجر منه ، وإن كان بكلمة أفٍ ، الدالة على الضجر والتبرم ، وإذا كانت كلمة [أفٍ] منهيا عنها فما بالك بغيرها ! ؟

٣ — وعلى الأولاد أن يتخيروا في مخاطبة آبائهم أجمل الكلمات ، وألطف العبارات ، وأن يكون قولهم كريمًا ، لا يصحبه شيء من العنف .

وهذا النهي ليس خاصاً بحالة الكبر ، وإنما هو نهي عام في جميع الأحوال .

وذكر هذه الحالة في الآية الكريمة ، لأنها الحالة التي يقع فيها عادة ما يتضجر منه .

٤ — وعليهم أن يتذللوا لآبائهم ويخفضوا جناح الذل لهم رحمة بهم ، وتعطفاً عليهم .

٥ — ومن حقهم كذلك أن يدعو لهم الله ، أن يظلهم برحمته التي وسعت كل شيء ، وأن يقول الولد في دعائه لوالديه :

---

(١) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

« رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » .

وفى سورة لقمان يكرر الله هذه الوصية ، فيقول :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ[1] فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[2] » .

وقد تضمنت هاتان الآيتان :

١ — الأمر بشكر الوالدين ، مقرونا ذلك بشكر الله عز وجل — مع اختصاص الأم بالذكر . لكثرة تعبها فى الحمل والوضع والتربية ، مع مزيد من العناية .

وقد أكدت السُّنة الوصية بها :

فعن أبى هريرة ، أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله :

[من أحق الناس بحسن صحابتى[3] ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك[4]] .

فقد ذكر فى هذا الحديث الوصية بالأم ثلاثاً قبل الأب .

وعن المقداد بن معدى كرب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) فصاله : أى فطامه فى تمام عامين .
(٢) سورة لقمان آية ١٤ ، ١٥ .
(٣) صحابتى أى صحبتى .
(٤) رواه البخارى ومسلم .

[إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب [١]] .

وروى أبو داود ، أنه قيل :

[يارسول الله : من أبر؟ قال : أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ومولاك الذى يلى ذاك [٢] ، حق واجب ، ورحم موصولة [٣]]

وعن أنس ، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

[الجنة تحت أقدام الأمهات] .

وروى البزار ، عن بريدة ، عن أبيه ، أن رجلا كان فى الطواف ، حامل أمه يطوف فسأل النبى صلى الله عليه وسلم : هل أديت حقها ؟

[قال : لا . ولا بزفرة واحدة] .

٢ — وكما تقرر الآية وجوب شكر الوالدين ، فإنها تؤكد هذا الحق معهما ولو كانا كافرين ، فالوالدان الكافران لهما حق البر والإحسان والطاعة ، فيما عدا الكفر والمعاصى ، فإنما الطاعة فى المعروف ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . . وحق الله وتوحيده وطاعته أعظم من حق الوالدين ، إذ أن طاعة الله هى طريق النجاة ، وسبيل الخلاص .

قالت أسماء :

[قدمت أمى ، وهى مشركة ، فاستفتيتُ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن أمِّى قدمت وهى راغبة [٤] أفأصلها ؟

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وصححه الحاكم .

(٢) أى قريبك الذى يقرب من هؤلاء المذكورين (٣) أى قرابة يجب وصلها

(٤) راغبة : أى ترغب فيما عندى وتسألنى شيئاً مما هى فى حاجة إليه .

فقال : نعم صِلى أمك[1]] .

وفى معرض الثناء من الله على الإنسان البار بوالديه فى سورة الأحقاف يقول الله سبحانه :

« وَوَصَّيْنَا ٱلإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ[2] » .

وعن عبد الله بن عمر قال :

[أقبل رجل إلى نبى الله فقال: أبايعك على الهجرة ، والجهاد ، أبتغى الأجر من الله . فقال : هل لك من والديك أحد حى ؟ قال : نعم ، بل كلاهما . قال : فتبتغى الأجر من الله تعالى ؟ قال : نعم . قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما] .

بر الوالدين بعد وفاتهما :

وبر الوالدين ليس مقصوراً على برهما فى أثناء حياتهما ، وإنما هو ممتد إلى مابعد الوفاة ، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

[يارسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) آية ، ١٥ ، ١٦ — الأحقاف

قال : نعم . الصلاة[١] عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ[٢] عهدهم من بعدهما وصلة الرحم[٣] التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما[٤]] .

وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[إن أبر البر صلة الولد أهل وُدِّ أبيه[٥]] .

النهى عن العقوق :

وقد نهى الإسلام عن عقوق الوالدين وهو الإيذاء بالقول ، أو الفعل ، أو غيرهما ، وجعله من أكبر الكبائر .

روى البخارى عن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يارسول الله . قال :
الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس . فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور . فما زال يقولها حتى قلنا لايسكت[٦]] .

وعن عبد الله بن عمر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
[رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد[٧]] .

وروى البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
[إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات[٨] ومنعاً وهات[٩] ووأد البنات[١٠] وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال] .

---

(١) الدعاء لهما . (٢) تنفيذ وصيتهما .
(٣) وهم الأقارب مثل الأعمام والعمات والأخوال والخالات .
(٤) رواه أبو داود والبيهقى . (٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .
(٦) أى قالوا : ليته سكت لما رأوه من انزعاجه . (٧) رواه الترمذى .
(٨) العقوق : الإيذاء الشديد بالقول أو الفعل .
(٩) منعا وهات : أى منع الحق وطلب ماليس بحق . (١٠) وأد البنات ، دفنهن أحياء

ومن العقوق أن يتسبب الإنسان فى شتم والديه وسبهما .

فعن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : يارسول الله هل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم : يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه[١]].

والله سبحانه يعجل عقوبة العاق فى الدنيا قبل الآخرة .

فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[كل الذنوب يؤخر الله مايشاء منها إلا عقوقَ الوالدين ، فإن الله يعجل لصاحبه فى الحياة الدنيا قبل الممات[٢]] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

أبغوني في ضعفائكم

أول واجب إنسانى نحو الضعفاء ـ من اليتامى، والأطفال، والعجزة، والنساء، والفقراء، والخدم، والمظلومين ـ الرحمة التى تتمثل فى الرفق بهؤلاء والحنو عليهم، والمساهمة الفعالة فى تخفيف آلامهم، ودفع ما ينزل بهم من ضرر وجور، ومحاولة الترفيه عنهم بكل وسيلة ممكنة.

وهذا هو ما فرضه الإسلام، وجعله سبيلا إلى رضوان الله ومحبته.

فالله يرحم من عباده الرحماء.

فإذا تحجرت القلوب، وغلظت الأكباد، وتنكرت للقيام بهذا الواجب الإنسانى، كان ذلك إيذانا بأن هؤلاء القساة ليسوا أهلا لأن ينتظموا فى سلك السعداء.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[لا تنزع الرحمة إلا من شقى].

ويقول :

[ارحموا تُرحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول[1]. ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون].

وإنما عنى الإسلام بشأن هؤلاء :

أولا : لأنهم أناسى. ومن حق الإنسان أن تصان كرامته، ويأخذ حقه كاملا غير منقوص.

ثانياً : لأنهم يمثلون الأكثرية فى كل مجتمع. والمجتمع الصالح لابد له من رعاية أمثال هؤلاء. لأنهم قوة بشرية، يمكن الانتفاع بها لو أحسنت رعايتها، ووجهت الوجهة الصالحة لاستخراج ما فيها من قوى وطاقات.

---

(١) وأقماع القول : هم الذين يستمعون القول فلا يفهمونه. ولا يحفظونه. ولا يعملون به.

ثالثاً : إن رعاية هؤلاء ، تقى المجتمع من أن يتعرض للهزات التى تؤثر فى كيانه ، وتقيه شر التمرد عليه .

ومن المبرات التى قدمها الإسلام لهؤلاء :

أنه منع ما كان يلحق اليتامى والنساء من ظلم : فقد كان العرب يمنعون من توريثهم ، بحجة أن من لا يقاتل لا يرث . فأبطل الإسلام هذا الإجحاف . وجعل لهم حقاً فى الميراث ، ونزل فى ذلك قوله تعالى الخاص بتوريث النساء :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا[1] » .

وقال تعالى فى توريث اليتامى وإعطائهم أموالهم :

« وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا[2] » .

واعتبر الاعتداء على مال اليتيم جريمة من أكبر الجرائم . فقال سبحانه وتعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[3] » .

بل إن الإسلام اعتبر إهانة اليتيم ، وترك الحض على طعام المسكين ، ومنع معاونة من يحتاج إلى المعاونة كفراً وتكذيباً بالدين . يقول الله تعالى :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ[4]

---

(١) سورة النساء آية ٧ .
(٢) سورة النساء آية ٢
(٣) سورة النساء آية ١
(٤) يدع : ينهر ويزجر

ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ[١] » .

وينوه الإسلام بإكرام اليتيم ، والأرملة، والمسكين ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[الساعى على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد فى سبيل الله] .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

[أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا] — وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى .

والإسلام فى الواقع بعد أن رفع عنهم الظلم ، وأنزلهم المنزلة اللائقة بهم كأناسى ، لهم كرامتهم ، جعل لمن لا مال له حقاً فى مال الغنى، فقال :

« وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ[٢] » .

وهذا الحق الذى أوجبه الله تعالى للمحتاجين فى مال الأغنياء ، إنما يقدر بقدر كفايتهم من القوت ، والملبس ، والمسكن ، وسائر الحاجات الضرورية التى لا يستغنى عنها الإنسان ليعيش .

ففى الحديث عن على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يَجهدَ الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم . ألا وأن الله يحاسبهم حساباً شديداً ، ويعذبهم عذاباً أليما[٣] .

---

(١) سورة الماعون .
(٢) سورة المعارج آية ٢٥
(٣) رواه الطبرانى .

وقد كان من آثار هذه التعاليم أن شعر الضعفاء بأن يداً حانية تمسح آلامهم فأحبوا مجتمعهم ، وأخلصوا له ، ووثقوا به ، وانفتح أمامهم باب الأمل والعمل فظفروا بما يبتغون ، دون أن يعوقهم معوق ، أو يصرفهم عن أهدافهم صارف .

وبهذا سادت روح المحبة والرحمة ، ونمت عواطف البر والحنان ، وأظل الجميع السلام والوئام ، وأحسوا بطعم الراحة والهناء .

وأى مجتمع تتوافر فيه هذه المبادىء الكريمة ، يكون أهنأ المجتمعات ، وأقربها إلى السعادة ، وأحقها بالسيادة والقيادة .

فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم

الإنسان بطبيعته يألف غيره من الناس ، ويحرص على مخالطته .

وعن طريق هذه الألفة ، وهذه المخالطة ، يتم التعاون بين الناس على قضاء المصالح فى أقرب وقت وبأقل جهد

وقد شرع الإسلام لتنظيم هذه العلاقات مناهج ، من شأنها أن تقوى هذه الروابط ، وتشد من أزرها ، وتبعد عنها ، ما من شأنه أن يضعف منها .

ومن هذه المناهج التى رسمها الإسلام : أدب الزيارة حتى تكون المخالطة على أساس أدبى كريم .

والأساس الذى رسمه الإسلام لذلك ، هو ماذكره القرآن الكريم فى سورة النور .

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ . وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »[1].

فى هاتين الآيتين :

أولا : النهى عن دخول بيوت الغير ، إلا إذا استأذن طالب الدخول ، وأذن له بالفعل .

---

(١) سورة النور آية ٢٧ ، ٢٨

وطريقة الإذن أن يقف المستأذن على الباب ، دون أن ينظر إلى ما بداخله حتى لا يتطلع إلى ما فى البيت من عورات . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر][1] .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر[2] .

ثم يطلب الدخول بعد ذلك ، مبينا اسمه ، ولا يكتفى بكلمة «أنا» فإنها لا تدل على الشخص المستأذن . ثم يسلم ويقول : أأدخل ؟ فإن أذن له دخل . فقد جاء فى البخارى ومسلم ، عن جابر قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدققت الباب ، فقال :

[من ذا ؟ فقلت : أنا . فقال : أنا . أنا ... ! كأنه كرهها] .

فإذا لم يؤذن له ، فليستأذن مرة ثانية ، وثالثة ، فإن لم يجبه أحد فلينصرف .

فقد روى البخارى وغيره ، عن أبى موسى الأشعرى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

[إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع] .

وإنما كان الاستئذان ثلاثاً ، لما رواه الطبرانى ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال :

[الاستئذان ثلاثة : بالأولى يستنصتون ، وبالثانية يستصلحون ، بالثالثة يأذنون أو يردون] .

وهذه الثلاث فى حالة ما إذا أسمع الطارق من فى البيت ، من الإذن الأول .

فإذا لم يسمع فكأنها لم تكن .

وعن سهل بن سعد قال :

[اطلع رجل من جحر « ثقب » فى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ومعه مِدْرَى « مشط كبير من حديد » يحك به رأسه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

[لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينيك ، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد

(٢) روه أبو داود عن عبد الله بن بسر

وعن أبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقأوا عينيه] .

ولهذا يرى الشافعى أنه لو فقئت عينه فى هذه الحالة فهى هدر ، فلا دية ولا قصاص .

ثانياً : إذا لم يكن فيها أحد فلا يصح أن يقتحم البيت ، وينتهك حرمته ويدخل فيه .

ثالثاً : أن البيت ليس معداً فى كل وقت لاستقبال الزوار ، فقد يكون الوقت غير مناسب للزيارة . فمن الأدب إذا أشير على الزائر بالرجوع ، أن يرجع ، دون أن يضيق صدره ، أو تتألم نفسه .

وهذه الأحكام المتقدمة خاصة بالكبار دون الصغار .

فأما الصغار فلهم أن يدخلوا فى جميع الأوقات ماعدا الأوقات التى يتخفف فيها أهل البيت من ملابسهم ، ويأوون إلى فراشهم ليستريحوا ويستجموا ، ففى هذه الحالات لا يجوز لهم الدخول فى البيوت إلا إذا استأذنوا وأذن لهم ، حتى لا تقع أنظارهم على مالا ينبغى أن تقع عليه .

وهذا ما أدب الله به المؤمنين فى قوله فى سورة النور :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ [1] » .

---

(١) سورة النور آية ٥٨

فالآية تبين أن الإذن بالنسبة للصغار يجب فى ثلاثة أوقات : من قبل الفجر ، وعند القيلولة فى وقت الظهر ، ومن بعد صلاة العشاء . لأن هذه الأوقات يأوى الناس فيها عادة إلى فراشهم، وقد يكون الإنسان فى هذه الحالة على هيئة لا يجب أن يراه أحد عليها . فلا يحل لأحد مطلقاً أن يدخل كبيراً كان أم صغيراً ، مادام مميزاً إلا إذا استأذن وأذن له فعلا .

فعن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسل غلاما من الأنصار إلى عمر ابن الخطاب، وقت الظهيرة، ليدعوه، فرأى عمر على كل حال كره عمر رؤيته عليها، فقال:

[يا رسول الله : وددت أن الله أمرنا ونهانا فى حالة الاستئذان ، فنزلت:

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ الآية ..[1] » .

أما الدخول فى غير هذه الحالات بالنسبة للصغار فلا حرج فيه، لأنه ليس هناك ما يمنع منه ، للحاجة التى تدعو إلى الدخول والخروج بصفة دائمة ، والاستئذان فى كل دخول مما يصعب ويشق .

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »[2] .

فإذا أدرك الطفل وبلغ الحلم ، حرم عليه الدخول حتى يستأذن .

يقول الله تعالى مبيناً ذلك :

« وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ »[3].

---

(١) سورة النور آية ٥٨

(٢) سورة الحج آية ٧٨

(٣) سورة النور آية ٥٩

وسواء أكان هؤلاء الأطفال من الأقارب والأولاد أم كانوا من الأباعد والأغراب . فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

[أستأذن على أمي ؟ فقال : نعم . قال : إنها لا تجد من يخدمها غيري . أفأستأذن عليها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم أتحب أن تراها عُريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن] .

ويتأكد هذا الإذن بالنسبة للزوج إذا كان قادما من سفر ، فيجب عليه أن يعلن زوجته بموعد قدومه ولا يفاجئها بالدخول عليها ليلا ، لتستعد الزوجة للقائه ، فلا يجد منها ما يكره . فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم الرجل أن يطرق أهله ليلا .

نعم ، يجوز الدخول في الأماكن العامة ، كالفنادق والحوانيت دون استئذان ؛ لأن هذه الأماكن ليس فيها عادة ما يخشى من النظر إليه ، فهي لا تماثل البيوت في حرمتها . يقول الله تعالى .

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ[١] » .

هذه هي آدب الإسلام في الزيارة ، وإنها لآداب عالية ، ينبغي أن نحرص عليها ، ونهتم بها .

(١) سورة النور آية ٢٩ .

سَلِّموا عَلى أنفسِكُم

الإسلام دين المدنية الصحيحة :

شرع الإسلام التحية عند اللقاء ، وعند المفارقة ، كمظهر من مظاهر المدنية الصحيحة .

إذ أن التحية من شأنها ، أن تؤلف القلوب ، وتقوى الصلات ، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان . .

روى مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم]

وقال :

[إن أولى[1] الناس بالله تعالى ، من بدأهم بالسلام]

روى عن شيبة الحجبى ، عن عمه رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته . وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه] رواه الطبرانى فى الأوسط .

وروى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[لما خلق الله آدم ، قال اذهب فسلم على أولئك ـ نفر من الملائكة جلوس ـ فاسمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال السلام عليكم . فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوه : رحمة الله] .

وروى الترمذى ، وابن ماجه ، عن عبدالله بن سلام ، رضى الله عنه قال :

---

(١) أولى الناس : أقرب الناس إلى الله . رواه أبو داود عن أبى أمامة .

[سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام] .

وقال عمار : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار(١) .

صيغة التحية :

أتم صيغة للتحية هي : السلام عليكم(٢) ورحمة الله وبركاته .

قال الله سبحانه :

« فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً » .

أي ليقل بعضكم لبعض : السلام عليكم ، وهذا السلام تحية شرعها الله لكم ، وكلها الخير والطيبة والبركة ، لما فيها من جلب المحبة ، وتقوية عرى المودة .

روى الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[إن الله جعل السلام تحية لِأُمَّتِنَا ، وأمانا لأهل ذمتنا(٣)] .

وإنما جعلت تحية للمسلمين بهذا اللفظ ، وهو لفظ السلام ، للاشعار بأن دينهم دين السلام والأمان ، وأنهم أهل السلم ومحبو السلام

وإنما كانت هذه الصيغة أتم ؛ لما فيها من مزيد الثواب وإن كان يكفي لفظ « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم فقط » .

فقد روى أبو داود ، والترمذي ، بسند حسن ، عن عمران بن حصين ، رضي الله عنهم ، قال :

---

(١) جمعت هذه الكلمات الكثير من الخير فإن الإنصاف من النفس يقتضي أداء جميع حقوق الله ، وحقوق الناس كما يقتضي ، ألا يطلب ماليس له ، وألا يوقعها في عمل غير صالح .

وبذل السلام للعالم : أي لجميع الناس ، يتضمن ألا يتكبر على أحد وألا يكون بينه وبين غيره جفاء ، وأما الإنفاق من الاقتار : فيستلزم كمال الوثوق بالله والتوكل عليه ، والرحمة والشفقة على المسلمين .

(٢) تقال بصيغة الجمع وإن كان المسلم عليه واحداً .

(٣) أهل الذمة : هم النصارى واليهود والذين يعيشون مع المسلمين في وطن واحد .

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : السلام عايكم ، فرد عليه . ثم جلس فقال : النبي صلى الله عليه وسلم : عشر[1] ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فرد عليه . ثم جلس . فقال : عشرون . ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد عليه ، فجلس . فقال : ثلاثون] .

هذه هى صيغة الإلقاء .

أما الجواب .

فهو على هذا الترتيب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، أو عايكم السلام ورحمة الله ، أو عايكم السلام .

ويصح أن يكون الجواب بصيغة الإفراد ، وإن كان الجمع أفضل .

حكم السلام :

السَّلامُ سنّة مُؤَكدةٌ . وأما رده فهو فرض لازم ، لقول الله تعالى :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »[2] .

أى إذا سلم عليكم أحد محيياً ، فواجب عليكم أن تردوا التحية بتحية مثلها ، أو أحسن منها وأفضل .

أى إذا قال لكم أحد : السلام عايكم ، فقولوا له : وعايكم السلام ورحمة الله ، وإذا قال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فيكون رداً للتحية بأحسن منها .

أما إذا قال فى الرد على التحية الأولى : وعايكم السلام ، وفى الثانية

---

(١) أى عشر حسنات .

(٢) سورة النساء آية ٨٦ .

وعليكم السلام ورحمة الله، كان ذلك رداً للتحية بمثلها .

والأفضل أن يجمل أحسن رد للتحية لكرام الناس كالعلماء ، والفضلاء ، ويرد عينها لمن هم دونهم .

ويجزىء تسليم الواحد على الجماعة ، كما يجزىء رد الواحد عنهم، فإن الواحد يقوم مقام الجميع ، نظراً لتضامن الجماعة واتحاذها .

فى سنن أبى داود ، عن على رضى الله عنه : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم] .

وفى الموطأ عن زيد بن أسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[إذا سَلَّمَ وَاحِدٌ من القومِ أجْزَأَ عنهم] .

آداب السلام :

آداب السلام : أن يسلم القادم على من يقدم عليه ، والراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير] .

وثبت عنه أيضاً أنه كان يسلم على الصبيان والنساء .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[السلام قبل الكلام] .

وسبب ذلك أن السلام أمان ، ولا كلام إلا بعد الأمان .

ومن الأدب أن يسلم الإنسان على أهل بيته إذا دخل عليهم. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنس :

[يابنى : إذا دخلت على أهلك فسلم ، يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك] .

ويستحب السلام عند الانصراف كما يستحب عند اللقاء .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

[إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة].

ومن الأدب إذا دخل بيته ، فلم يجد فيه أحداً أن يقول :

[السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين] .

وإذا كتب أحد كتابا وفيه التحية بالسلام ، فيجب الرد فوراً، وكذا إذا أبلغه أحد السلام ، فيقول عليك وعليه السلام .

ففى صحيح البخارى ومسلم ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[هذا جبريل يقرأ عليك السلام ! قالت : قلت : عليك وعليه السلام ورحمة الله وبركاته] .

وإذا سلم إنسان على إنسان ، ثم تلاقيا بعد افتراق فليسلم أحدهما على الآخر ولو كان هذا الافتراق قليلا .

ففى سنن أبى داود ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه ، فإن حالت بينهما شجرة ، أو جدار ، أو حجر ، ثم لقيه فليسلم عليه] ..

وقد كانت الصحابة يمشون ، فإذا استقبلتهم شجرة أو أكمة ، فتفرقوا يميناً وشمالا ، ثم التقوا من ورائها ، سلم بعضهم على بعض . .

وإذا سلم على أيقاظ ، وبجوارهم نيام ، فالسنة أن يخفض صوته بحيث يحصل سماع الأيقاظ ، دون أن يستيقظ النيام . فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يسلم تسليما لا يوقظ نائماً ، ويُسمعُ اليقظان .

قال فى زاد المعاد :

وكان صلى الله عليه وسلم يسلم بنفسه على من يواجهه ، ويحمل لمن يريد السلام عليه من الغائبين عنه ، ويتحمل السلام لمن يبلغه إليه ، وإذا بلغه أحد السلام عن غيره يرد عليه وعلى المبلغ به ، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، وإذا سلم عليه أحد رد عليه مثل تحيته ، أو أفضل منها على الفور من غير تأخير إلا لعذر مثل الصلاة ، وحالة قضاء الحاجة ، وكان يسمع المسلم على رده ، ولم يكن يرد بيده ، ولا رأسه ، ولا أصبعه إلا فى الصلاة ، فإنه كان يرد إشارة . ثبت عنه ذلك فى عدة أحاديث ، ولم يجىء عنه ما يعارضها إلا بشىء باطل لا يصح عنه .

تحية العصاة والمبتدعين :

العصاة الذين لم يتوبوا من معاصيهم ، والذين يضيفون إلى دين الله ماليس منه ، ويبتدعون بدعا ليست من الإسلام فى شىء . لا يسلم عليهم ، ولا يرد عليهم السلام إذا سلموا . زجراً لهم ولغيرهم .

واستدل البخارى على ذلك بما رواه فى قصة كعب بن مالك ورفيقيه حين تخلَّفوا عن غزوة تبوك ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم . وكان كعب إذا سلم على الرسول لا يرد عليه السلام .

وروى سعيد بن منصور: عن عبد الله بن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[لاتسلموا على من يشرب الخمر ، ولاتعودوهم إذا مرضوا ، ولاتصلوا عليهم إذا ماتوا] .

وقال عبد الله بن عمر : لاتسلموا على شَربة الخمر .

قال النووى :

فإن اضطر إلى السلام على الظلمة ، بأن دخل عليهم ، وخاف ترتب مفسدة فى دينه أو دنياه ، أو غيرهما إن لم يسلم ، سلم عليهم .

السلام على أهل الكتاب :

ذهب جمهور العلماء إلى أنه لايجوز ابتداء أهل الكتاب بالسلام .

لما رواه مسلم ، عن أبى هريرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام] .

ويرى جماعة جواز ابتدائهم به ، منهم جماعة من الشافعية . ونقل النووى فى شرح مسلم : جواز ذلك عن ابن عباس وأبى أمامة وابن محيريز قال : وهو وجه لأصحابنا .

وحمل هؤلاء الحديث المتقدم على قضية خاصة ببنى قريظة ، وليس النهى عاماً لجميع أهل الذمة ، واستدل هؤلاء بحديث أبى أمامة المتقدم :

[إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا ، وأماناً لأهل ذمتنا] .

فإن ابتدءوا بالسلام ، فقد أجاز الرد عليهم طائفة من العلماء وأوجبه آخرون .

روى ابن جرير ، أن ابن عباس قال : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه

وإن كان مجوسياً ، فإن الله يقول: « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا[(١)] ».

وعن الشعبي ، أنه قال لنصرانى سلمَّ عليه : وعليك السلام ورحمة الله تعالى فقيل له فى ذلك فقال :

أليس فى رحمة الله يعيش .. ؟

وممن قال بجواز الرد ولم يوجبه الأحناف ، حيث جاء فى كتبهم : ولو سلم يهودى أو نصرانى أو مجوسى فلا بأس بالرد .

واتفق العلماء على جواز ابتداء السلام على جماعة فيهم مسلمون ، وغير مسلمين ، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم .

كما اتفقوا على جواز تحيتهم بغير السلام مثل : صبَّحك الله بالخير ، أو بالمسرة ، ونحو ذلك .

من تمام التحية المصافحة :

وتستحب المصافحة عند اللقاء، مع بشاشة الوجه ، فإن ذلك مما يزيدفى المودة والحب .

روى البخارى، أن قتادة قال لأنس: أكانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : نعم .

وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[مامن مسلمين يلتقيان ، فيتصافحان ، إلا غفر لهما قبل أن يفترقا][(١)].

ولكن على الإنسان أن يحذر الانحناء ، لما فيه من امتهان النفس .

روى الترمذى بسند حسن عن أنس ، قال :

[قال رجل : يارسول الله : الرجل منا يلقى أخاه ، أو صديقه ، أينحنى له ؟

---

(١) سورة النساء آية ٨٦ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى .

قال : لا

قال : أفيلتزمه ويقبله ؟

قال : لا .

قال :فيأخذبيدهويصافحه؟

قال : نعم]

وروى أبو داود عن أنس قال : لما جاءأهل اليمن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[قد جاءكم أهل اليمن ، وهم أول من جاء بالمصافحة] .

وروى الترمذى عنه قال :

[كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استقبله الرجل فصافحه ، لاينزع يده من يده ، حتى يكون الرجل الذى ينزع ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه ، ولم يُر مقدِماً ركبتيه بين يدى جليس له] .

كل المسلم على المسلم حرام

إن الله سبحانه كرَّم الإنسان : خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وجعله خليفة عنه ، وزوَّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض ، وليصل إلى أقصى ما قدر له من كمال مادى ، وارتقاء روحى .

ولا يمكن أن يحقق الإنسان أهدافه ، ويبلغ غايته ، إلا إذا توفرت له جميع عناصر النمو ، وأخذ حقوقه كاملة .

وفى طليعة هذه الحقوق التى ضمنها الإسلام حق الحياة ، وحق التملك ، حق صيانة العرض .

وهذه الحقوق ، واجبة للإنسان من حيث هو إنسان ، بقطع النظر عن لونه أو دينه ، أو جنسه ، أو وطنه .

قال تعالى : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[1] » .

[وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال : أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ... ألا هل بلغت ؛ اللهم فاشهد ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه . وماله . وعرضه] .

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠

ولنجمل القول فى الوسائل التى اتخذها الإسلام للمحافظة على كل حق من هذه الحقوق

صون الحياة :

وأول حق من الحقوق التى يفرض الإسلام حمايتها :

حق الحياة . . . فهو حق مقدس ؛ لا يحل انتهاك حرمته ، ولا استباحة حماه . يقول الله سبحانه : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[١] » .

والحق الذى تزهق به النفوس ... هو ما فسره الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله ، عن ابن مسعود :

[لا يحل دم امرىء مسلم ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث :

(الثيب[٢] الزانى ، والنفس[٣] بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة[٤]] .

رواه البخارى ومسلم .

ويقول سبحانه وتعالى :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا »[٥] .

ويقول :

« وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ »[٦] .

والله سبحانه جعل عذاب من سن القتل عذاباً لم يجعله لأحد من خلقه .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٣٣ . (٢) المتزوج .

(٣) أى تقتل النفس التى قتلت نفسا عمداً بغير حق بقتل النفس .

(٤) أى المرتد عن دين الإسلام (٥) سورة الإسراء آية ٣١

(٦) سورة التكوير آية ٨ ، ٩

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل من دمها . لأنه كان أول من سن[1] القتل] .

ومن حرص الإسلام على حماية النفوس ، أنه هدد من يستحلها بأشد عقوبة ، فيقول :

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً[2] » .

فهذه الآية تقرر أن عقوبة القاتل فى الآخرة العذاب الدائم ، والخلود المقيم فى جهنم ، والغضب ، واللعنة ، والعذاب العظيم :

ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما : « لا توبة لقاتل مؤمن عمداً » . . لأنها آخر ما نزل . ولم ينسخها شىء ؛ وإن كان الجمهور على خلافه .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[لزَوالُ الدنيا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمنٍ بغير حق[3]] .

وروى الترمذى : بسند حسن عن أبى سعيد رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار] .

وروى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) هو قابيل الذى قتل هابيل — والكفل : النصيب — رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة النساء آية ٩٣ .
(٣) رواه ابن ماجه بسند حسن عن البراء .

[من أعانَ على دَمِ امرئ مسلم بشَطْرِ كَمِةٍ كتِبَ بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله] .

ويستوى فى ذلك قتل المسلم ، والذمى ، وقاتل نفسه .

ففى قتل الذمى : جاءت الأحاديث مصرحة بوجوب النار لمن قتله .

روى البخارى، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[من قتل معاهدا[١] لم يَرِحْ رائحة الجنة . وأن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما] .

وأما قاتل نفسه فالله سبحانه وتعالى يحذر من ذلك ، فيقول :

« وَلاَ تُلقُوا بِأيْدِيكُمْ إلَى التَّهْلُكَةِ »[٢] .

وقال :

« وَلاَ تَقْتُلوا أنفُسَكُمْ إنَّ اللهَ كَانَ بكُمْ رَحِيماً[٣] » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[من تَرَدَّى[٤] من جبل فقتل نفسه ، فهو فى نار جهنم ، يتردَّى فيها خالداً مُخَلداً فيها أبداً . ومن تَحَسَّى سُمًّا فقتل نفسه ، فَسُمُّهُ فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ[٥] بها فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً] .

---

(١) المعاهد من له عهد مع المسلمين – إما بأمان من مسلم – أو هدنة من حاكم ، أو عقد جزية .
(٢) سورة البقرة ١٩٥
(٣) سورة النساء ٢٩ (٤) التردى – السقوط أى أسقط نفسه متعمدا مثلا .
(٥) يتوجأ بها : يضرب بها نفسه .

وروى البخارى : عن أبى هريرة أيضاً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار . والذى يطعن نفسه يطعن نفسه فى النار . والذى يقتحم[1] يقتحم فى النار] .

وعن جندب بن عبد الله — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع ، فأخذ سكيناً فحز بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات[2] قال الله تعالى . . . !

[بادرنى عبدى بنفسه حرَّمت عليه الجنة][3] .

وثبت فى الحديث :

[من قتل نفسه بشىء عذب به يوم القيامة] .

ومن أبلغ ما يتصور فى التشنيع على القتلة بالإضافة إلى ما سبق ، أن الإسلام اعتبر القاتل لفرد من الأفراد ، كالقاتل للأفراد جميعا ، وهذا أبلغ ما يتصور من التشنيع على ارتكاب هذه الجريمة النكراء . يقول سبحانه :

« أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا . وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا[4] » .

وقد شرع الله سبحانه ، القصاص وإعدام القاتل ، انتقاماً منه ، وزجراً لغيره ، وتطهيراً للمجتمع من الجرائم التى يضطرب فيها النظام العام ، ويختل معها الأمن ، فقال :

---

(١) يقتحم : يرمى نفسه .
(٢) أى ما انقطع حتى مات .
(٣) رواه البخارى .
(٤) سورة المائدة آية ٣٢

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١] » .

وهذه العقوبة مقررة فى جميع الشرائع الإلهية المتقدمة .

يقول الله سبحانه :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ . وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ . وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ . وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ . وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ[٢] » .

ولم تفرق الشريعة بين نفس ونفس ، فالقصاص حق ، سواء أكان المقتول كبيراً أم صغيراً ، رجلا أم امرأة .

فلكل حق الحياة ، ولا يحل التعرض لحياته بما يفسدها بأى وجه من الوجوه ، وحتى فى قتل الخطأ ، لم يعف الله تعالى القاتل من المسئولية ، وأوجب فيه العتق والدية .

فقال سبحانه :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا[٣] » .

وهذه العقوبة المالية إنما أوجبها الإسلام فى القتل الخطأ ، احتراما للنفس ، حتى لا يتسرب إلى ذهن أحد هوانها . وليحتاط الناس فيما يتصل بالنفوس

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) سورة المائدة آية ٤٥ .

(٣) سورة النساء آية ٩٢ .

والدماء ، ولتسد ذرائع الفساد ، حتى لا يقتل أحد أحداً ، ويزعم أن القتل كان خطأ .

ومن شدة عناية الإسلام بحماية الأنفس ، أنه حرم إسقاط الجنين بعد أن تدب فيه الحياة ، إلا إذا كان هناك سبب حقيقى يوجب إسقاطه ، كالخوف على أمه من الموت ونحو ذلك ، وأوجب فى إسقاطه بغير حق غُرَّة — ربع عشر الدية — .

حماية المال :

وكما أن الإسلام احترم حق الحياة ، فإنه كذلك احترم حق الملكية ، واعتبره حقاً مقدساً ، لا يحل لأحد أن يعتدى عليه بأى وجه من الوجوه .

ولهذا حرم السرقة ، والغصب ، والربا ، والغش ، وتطفيف الكيل والوزن ، والرشوة ، واعتبر كل مال أخذ بغير سبب مشروع أكلا للمال بالباطل .

وقد قضى الإسلام بقطع يد السارق ، التى من شأنها أن تباشر السرقة . وفى ذلك حكمة بينة ، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم . والتضحية بالبعض من أجل الكل ، مما اتفقت عليه الشرائع والعقول .

كما أن فى قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس ، فلا يجرؤ أن يمد يده إليها .

وبهذا تحفظ الأموال وتصان ، يقول الله تعالى :

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [1] » .

(١) سورة المائدة آية ٣٨ .

فإذا تقوى اللصوص بقوة السلاح ، وأفسدوا فى الأرض ، وأخافوا الآمنين، وخرجوا على النظام العام، وسطوا على أموال الناس وجبت مطاردتهم، والتنكيل بهم ،سداً لذرائع الفساد ، ومنعاً للعدوان ، يقول الله تعالى فى ذلك :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] » .

والراشى والمرتشى لا حظ لهما من رحمة الله ، إذ أن الرشوة من شأنها أن تفسد أداة الحكم ، وتجعل الحكام يتلاعبون بالأحكام ، وينقادون للهوى ، ويميلون حيث يحلو لهم الميل ، فيضلون عن الحق ، ولا يعرفون السبيل إليه . وإذا وصل الحكام إلى هذا الانحطاط ولم يجدوا من يقوم انحرافهم فعلى الأمة العفاء .

« يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ[2] » .

والله سبحانه وتعالى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وتقديمها إلى الحكام ، للاستعانة بذلك على أكل فريق من أموال الناس بالإثم ، أو أخذ ماليس بحق ، فيقول :

« وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى

---

(١) سورة المائدة آية ٣٣ ، ٣٤   (٢) سورة ص آية ٢٦ .

الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[١] » .

وعن أبى هريرة قال :

[لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشى فى الحكم[٢]] .

والغصب مما يوجب العذاب الأليم ، فقد روى البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[من ظلم قِيدَ شبر طُوِّقَهُ من سبع أرضين][٣] .

وروى مسلم ، عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه ، فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيرا يارسول الله؟ فقال وإن كان قضيبا من أراك] .

والغش فى البيع والشراء وغيرهما ، يسلب المرء شرف الانتساب إلى الإسلام .

فعن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا] .

رواه مسلم .

وفى رواية له : أنه صلى الله عليه وسلم [مر على صُبرة[٤] طعام فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللا ، فقال : ما هذا ياصاحب الطعام ؟ قال أصابته السماء[٥] يارسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؛ من غشنا فليس منا] .

ومما يؤكد حرص الإسلام على المحافظة على أموال الناس ، وتقديسه لهذا الحق أنه هدد الذين يتلاعبون بالمكاييل والموازين بالويل والهلاك ، فقال الله سبحانه :

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٨ .

(٢) الراشى من يعطى الذى يعينه على الباطل والمرتشى الآخذ والحديث رواه أحمد وحسنه . الترمذى وصححه ابن حبان .

(٣) قيد : قدر . « أى صار ما اغتصبه من الأرض كالطوق فى عنقه من سبع أرضين » .

(٤) الصبرة : الكوم .

(٥) السماء : المطر .

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[(١)] » .

والربا استغلال مجهود الغير ، وهو مناف لروح التعاون ، والتضامن : ومؤذن بحرب من الله ورسوله ، يقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ[(٢)] » .

ولا فرق فى ذلك بين كون المال ملكا لمسلم أو لغير مسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من ظلم مُعاهَدًا ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه[(٣)] يوم القيامة[(٤)]] .

وأى عمل مجيد ولو بلغ الاستشهاد فى ميدان الجهاد لا يكفر خطيئة أخذ المال بغير حق .

قال عمر بن الخطاب : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا فلان شهيد ، وفلان شهيد ، حتى مروا على رجل فقالوا : فلان شهيد . فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

[كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة][(٥)] .

---

(١) سورة المطففين آية ١ — ٦ . (٢) سورة البقرة آية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) أى خصمه الذى أقيم الحجة على من ظلمه (٤) رواه أبو داود .
(٥) غلها : سرقها من الغنيمة قبل قسمتها .

ومن حق الإنسان أن يدفع عن ماله ولو قتل دونه ، فعن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من قتل دون ماله فهو شهيد[١] ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد] .

[وعن أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله أرأيت[٢] إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : فلاتعطه ، قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : قاتله . قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال هو فى النار][٣] .

من حماية العرض :

إن حماية الأعراض ، وصيانة كرامات الناس ، والمحافظة على حرماتهم ، لها فى الإسلام شأن ، وأى شأن ؟ . .

وهى حقوق فرضها الإسلام ، وجعلها دينا يتعبد به ، كما يتعبد بالصلاة ، والذكر ، والدعاء ، ولتبقى سلوكا عملياً فى واقع الحياة ، ومظهراً من مظاهر المجتمع النظيف ، فضلا عن أنها تحفظ كيانه ، وتدعم أركانه ، وتقيه من التصدع .

ولقد أوسع الإسلام القول ، وأفاض فى الوسائل التى من شأنها أن تحقق هذه الغاية ، ونشير هنا إلى آيتين : يقول الله تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حديث حسن صحيح .
(٢) أرأيت : أخبرنى .
(٣) رواه مسلم .

أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون[١] » .

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم[٢] ».

وقد تضمنت هاتان الآيتان :

١ — النهى عن السخرية ، وهى احتقار الغير ، واستصغاره لغير سبب ظاهر[٣] ، سواء أكان الاستصغار بالعبارة ، أم بالإشارة ، أم بأى طريقة مفهمة لمعنى التحقير .

وإنما نهى الله عن ذلك ؛ لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه . .

فإذا كان المسخور منه بليد الشعور ، لايتأثر بما يلحقه من إهانات ، فإن النهى فى هذه الحالة لايتناوله بل يكون تحقيره ضرباً من المزاح الذى أحله الله . . .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا

وفى الآية تعليل النهى بأن المستهزأ به قد يكون أزكى نفساً، وأحسن عملا،

---

(١) سورة الحجرات آية ١١.

(٢) سورة الحجرات آية ١٢.

(٣) لو احتقر الإنسان غيره لفعله السيء أو لتكبره على الناس مثلا لم يكن ذلك منهيا عنه .

وأقرب إلى الله بما يقدمه من خير وبر ، ولا يعلم بذلك المستهزىء ، فيكون قد تعرض للظلم ، بتحقير مايستحق التعظيم ...

روى مسلم وأحمد عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[رُبَّ أَشْعَثَ[1] ، أَغْبَرَ ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ] .

وروى مسلم ، عن جندب بن عبد الله : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

[قال رجل: والله لايغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل: من الذى يَتَأَلى[2] علىَّ ألاَّ أغفرَ لفلان ، إنى قد غفرت له ، وأحبطت عملك ..]

إن سخرية الرجال من الرجال ، والنساء من النساء ، إثم كبير ، وشر لو لم يكن للانسان غيره لأوبقه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

[بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم] .

٢ — النهى عن ذكر العيوب والنقائص ، فإن الطعن فى الأشخاص يحرج الصدور ، ويورث العداوات . وفى الحديث :

[طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس]

٣ — النهى عن أن يدعو أحد غيره بلقب يكرهه : ويطلق عليه لفظاً يسوءه أن يسمعه ، بل الواجب أن يدعو أخاه المسلم بأحب الأسماء إليه ، فإن

---

(١) الأشعث غير مهذب الشعر ... ومعنى الحديث أنه قد يكون رجل غير متجمل. وليس له منظر جميل يدفعه الناس ويطردونه عن أبوابهم لضعفه وفقره أو لرثاثة هيئته لو دعا الله مقسما عليه لأجاب دعاءه .

(٢) يتألى : يحلف .

إطلاق لفظ قبيح على من اتصف بالإسلام غير كريم « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » .

٤ — إن مخالفة هذه التعاليم ، وعدم مراعاتها ، ظلم يسخط الله ويغضبه ، لأن ارتكاب أمثال هذه الحماقات يفرق الجماعة ، والله يريد للمسلمين أن يتعاونوا على البر ، ويتجمعوا على المصلحة ، ويعيشوا فى ظلال المحبة والمودة .

٥ — النهى عن الظن السيء ، وهو الحكم على الغير بأمر سيء من غير دليل . فالتهمة ، والتخون للأهل والأقارب والناس ، من غير اعتماد على أدلة صحيحة ، إثم من الآثام ، وهو أكذب الحديث . . .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخارى وغيره ، عن أبى هريرة :
[إياكم والظن فإن الظن أكذب[1] الحديث] .

وإنما كان ذلك كذلك ، لأنه رجم بالغيب ، وهتك لحرمة المظنون به .

فإن أعلن أحد عن نفسه ، وجاهر بإثمه ، فإن الظن فى هذه الحالة ليس بحرام ، لأن الأمر خرج عن دائرة الظن إلى منطقة اليقين . .

فمن وضع نفسه موضع التهمة ، فلا يلومن من أساء به الظن .

وقلما يخلو قلب عن إساءة الظن بالغير .

وقد وضع الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك العلاج ، فقال :

ثلاث لازمات لأمتى : الطِّيَرَةُ ، والحسد ، وسوء الظن .

فقال رجل : وما يذهبهن يارسول الله ممن هن فيه : فقال :

[إذا حسدت فاستغفر . . .
وإذا ظننت فلا تحقق . . .
وإذا تطيرت فامض] .

---

(١) أكذب الحديث . أى مثل الكذب فى القول من حيث الإثم .

ويقول عمر رضى الله عنه : ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا ماوجدت لها فى الخير مذهباً .

٦ — النهى عن التجسس وتتبع العورات ، لما فيه من اشتغال بما لايفيد ، ضياع للعمر فى غير جدوى ولا مصلحة ، ولأنه مثير للضغائن والأحقاد .

روى الترمذى عن أبى بَرْزَة الأسلمى: أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه صعد المنبر ، فنادى بصوت رفيع :

[يامعشر من أسلم بلسانه ، ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين . ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم ـ تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته ، يفضحه ولو فى جوف رحله] .

ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : « ما أطيبك وأطيب ريحَك وما أعظمك وأعظم حرمتَك . والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك » .

وروى أبو داود ، عن معاوية رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم]

[وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أنه أُتِىَ برجل فقيل له : هذا فلان تقتطر لحيته خمراً .قال :إنا قد نهينا عن التجسس . ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به[1]]

٦ — النهى عن الغيبة :

وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الغيبة ، فقال فيما رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، عن أبى هريرة :

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

[أتدرون ما الغيبة ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال: ذكرك أخاك بما يكره .

قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته][(١)] .

فى هذا الحديث الكشف عن حقيقة الغيبة ، وأنها ذكر الغير بما يكرهه من النقائص والعيوب ، وسواء أكان ذلك متصلا بنقص فى بدنه ، أو خلقه ، أو نسبه ، وليس ذلك مقصوراً على الذكر باللسان فقط ، بل هو شامل لكل ما يفيد معنى التحقير ، سواء كان بالإشارة أم التلميح .

يقول الله تعالى :

« وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ[(٢)] » .

وقد روى الترمذى بسند صحيح، أن عائشة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم :

[حسبك من صفية كذا ، وكذا[(٣)] .

فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته[(٤)]] .

وعن عائشة أيضاً ، أنه مرض لصفية بنت حُيَيٍّ بعير ، وعند زينب فَضْل ظَهْر . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لزينب أعطيها بعيراً .

فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ؟

فغضب رسول الله ، وهجرها ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر] .

---

(١) كذبت عليه .

(٢) سورة الهمزة .

(٣) أى ما الذى يعجبك منها ؟ يكفيك أنها قصيرة .

(٤) غيرته وكدرته .

التحذير من الغيبة :

إن ذكر الغير بالنقص، والتماس عيوبه، فضلا عن كونه يؤلم الإنسان ويخدش كرامته ؛ فإنه كثيرا ما يثير الفتن ، ويقطع الروابط ، ويمزق الصلات، وينسى المرء عيوب نفسه ، ومن ثم . . .

فإن الإسلام اعتبر هذا التنقيص والتحقير ، كأكل لحم الأخ الميت ، لينفر منه . فكما أن النفس تشمئز من أكل لحم الأخ بعد موته ، وتنفر منه ، فكذلك يجب النفور والاشمئزاز من الغيبة يقول الله تعالى :

« وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . وَاتَّقُوا اللَّهَ[1] »

ولما أقيم الحد على ماعز الأسلمى قال رجل من الأنصار لصاحبه :
أنظر إلى هذا الذى ستر الله عليه ، فلم يدع نفسه حتى رُجِمَ رجم الكلب
فسمع رسول الله هذا فسكت . ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار ، فقال :
[أين فلان وفلان ؟
فقالوا : نحن ذا يارسول الله
فقال لهما: كلامن جيفة هذا الحمار.
فقالا : يا رسول الله غفر الله لك . . . من يأكل من هذا ؟ فقال :
ما نلتما من عرض هذا الرجل آنفا أشد من أكل هذه الجيفة . فوالذى نفسى بيده . إنه الآن فى أنهار الجنة[1] . . .]

والذين لا يتورعون عن أعراض الناس ، ويستمرئون لحومهم، أسوأ حالا من أكلة الربا .

فعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أتدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢ (٢) رواه ابن حبان .

قال : [إن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم] .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا . فَقَدْ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » .

وروى أبو داود ، عن أبى هريرة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

[إن من أكبر الكبائر استطالة الرجل فى عرض رجل مسلم بغير حق ، ومن الكبائر السبتان بالسبة]

وقال عمر بن عبد العزيز : أدركنا السلف ، وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس .

إن كرامة الإنسان ، وصيانة الأمة ، يجب أن يظلا بعيدين عن عبث العابثين ، وليس ثمة سبب من الأسباب يبيح التفريط فى أية ناحية من هاتين الناحيتين .

وقد تكون هناك مصالح شرعية لا يتوصل إليها إلا بذكر العيوب ، وحينئذ يترخص الإسلام فى ذكر هذه العيوب تحقيقاً لهذه المصالح .

فمن ذلك :

أولا : قد يكون وقع على الإنسان ظلم ، ويريد أن ينتصف لنفسه ممن ظلمه . فيرفع ظلامته إلى من ينصفه ويرد إليه حقه ، يقول الله سبحانه :

« لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ » .

والإسلام يعتبر المظلوم صاحب مقال ، فى الوقت الذى يستبيح فيه عرض الظالم ، فيقول الرسول

[إن لصاحب الحق مقالا]

ويقول :

[لى الواجد يحل ماله وعرضه [2]]

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥ .

(٢) لى الواجد أى مماطلة الغنى القادر على السداد يبيح شتمه وأخذ ما عليه من مال .

ويقول :

[مَطلُ الغنى ظُلْمٌ [1]] .

وإذا سكت المظلوم عن حقه كان سكوته إثماً ، وكان إيذاناً بأنه غير جدير بالحياة ..

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

[إذا هابت أمتى أن تقول للظالم ياظالم : فقد تُوُدِّعَ منهم] .

أى أستحقت أن يقال لها : الوداع .. الوداع ..

ثانياً : هناك بعض نماذج من الناس لايتورعون عن المجاهرة بالإثم والإعلان عن فجورهم .. هؤلاء لا كرامة لهم بعد أن ألقوا عن وجوههم جلباب الحياء والعفة .

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وصلى خلفه، فلما هم بالانصراف وركب بعيره ، قال :

[اللهم ارحمنى ومحمداً . ولا نشرك فى رحمتنا أحداً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد تحجرت واسعاً يا أخا العرب ، ثم قال: أتقولون : هو أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا إلى ما قال؟] .

وعن عائشة أن رجلا استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

[ائذنوا له . بئس أخو العشيرة [2] .

فلما دخل ألان له الكلام. قلت : يارسول الله : قلت الذى قلت ثم ألنت له الكلام ؟ قال : أىْ عائشة : إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه] .

وعند أبى داود :

[إن من شرار الناس الذين يكرَّمون إتقاء ألسنتهم] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

وعنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً [1]] .

ففى هذه الأحاديث جواز غيبة الجهلة، والفسقة ، والأشرار ، لتحذير الناس من شرهم ، ولعلهم يرتدعون إذا بلغهم مايقال عنهم .

ثالثاً : أن يستشار الإنسان فى أمر من الأمور ، فيرى أن من الحق عليه أن يكشف عن الحقائق المستورة من باب النصيحة ، وحتى يأخذ المستشير حذره ، ولا يتورط فى مشاركة من لا تحسن المشاركة معه .

روى البخارى ومسلم عن فاطمة بنت قيس ، قالت : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن أبا الجهم ومعاوية خطبانى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[أما معاوية فصعلوك لا مال ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه [2]] .

رابعاً: أن يستفتى فى أمر من الأمور ،فيذكر بعض العيوب؛ ليعرف طريق الخلاص ولا يمكنه معرفة هذا الطريق إلا بذكرها .

فعن عائشة قالت : قالت هند امرأة أبى سفيان للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطينى مايكفينى وولدى إلا ما أخذته منه ، وهو لايعلم ، قال :

[خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف] .

خامساً : التحذير من الشر، ومن ذلك جرح المجروحين من الرواه ، والشهود، ومنه التنبيه على بدع المبتدعين.

---

(١) قال الليث : هذان الرجلان كانا منافقين .

(٢) أى ضراب للنساء أو كثير الأسفار .

سادساً : أن يكون الإنسان معروفاً بلقب مثل الأعمش، والأعمى، والأصم والأعرج ، ونحو ذلك فيذكر ذلك للتعريف لا للتنقيص والاحتقار .

التوبة من الغيبة :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

[إن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : اللهم اغفر لنا وله] .

والمذهب المختار أن الاستغفار لمن اغتيب ، وذكر محامده ، يكفر الغيبة ، ولا يحتاج إلى إعلامه أو استسماحه[1] .

---

(١) فقه السنه جـ ٤ ص ٢١١ .

خاتمة

أما بعد :

فما أكثر مايتحدث الناس عن العلم ، وعن التقدم ، وعن التطور ، وعن الرفاهية الاقتصادية والمادية .

وما أشد انصرافهم عن الله ، وعن الدين، وعن الخلق ،والفضائل .

وكأن الحياة ليست شيئاً سوى الخبز والنعم الظاهرة .

أجل : إن الحديث عن العلم ،وعن المال، وعن التقدم الصناعى، وغيره من أنواع النشاط المادى حسن وجميل ؛ لأنه متصل بواقع الإنسان وضروراته وحاجاته الجنسية والنوعية .

ولكن ! أجل منه أن تكون العناية بفضائل الإنسان ومثله وقيمه أحق بالتقديم .

فإن الإنسان لايحيا بالخبز وحده .

وإنما ثمة مثلٌ وفضائل . هى العناصر الأساسية فى تقويم شخصية الإنسان.

وهذه العناصر تتمثل فى :

الإيمان ، والإخلاص ، وإبتغاء رحمة الله ، ومحبته ، وشكره ، ورجائه ، والخوف منه ، وذكره ، وحسن عبادته .

كما تتمثل فى :

الإحسان ، والاستقامة ، والأمانة ، والصدق ، والخير ، والرفق، والحياء، والعفة ، وبر الوالدين ، ورحمة الضعيف ، واحترام المرأة ، وإحسان التربية ، واحترام حق الحياة ، والمحافظة على العرض وعلى المال .

فهذه هى العناصر الأساسية ، التى يجب أن تتوافر العناية بها ، وألا يشغل الرأى العام نفسه بما هو دونها .

فإن تحقيقها هو السبيل الصحيح إلى الظفر بما ينشده من سعادة ورفاهية .

وإن قيام الحياة المادية ، دون أن يكون لها سند من روح ، مدمر لنفسية الإنسان ، وفى تدمير نفسيته ، تدمير للحياة المادية ، والحياة الروحية معاً .

ومن أجل هذا ..

اتجه الإسلام فى جميع محاولاته الإصلاحية إلى النفس مستهدفاً تقويمها وتهذيبها .

فإن كل إصلاح فى نظره لايعتمد على هـذا الأساس . فهو إصلاح عقيم لايثمر ثماره ، ولا يحقق الغاية المرجوة منه .

ومهما حاول الإنسان أن يحقق رسالته كخليفة عن الله فى الأرض ، دون تغيير جوهرى فى نفسه ، فليس ببالغ شيئاً .

[إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم]

وهذا هو الذى قصدنا إليه فى هذه الدراسات ، وحاولنا بها أن نكشف عن خطة الإسلام المثلى ، التى رسمها للإصلاح الروحى ، والخلقى ، والاجتماعى .

وغايتنا من إبراز هذه الجوانب الثلاثة ، أن نعرض مافى الإسلام من مثل ومبادىء ، هى أنقى ، وأطهر ، ماعرفه البشر .

ولتكون أعلاماً هادية ، ترشد الحيارى ، وتنير معالم الطريق ..

فهـــرس

الجانب الروحى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الجانب الخلق

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الجانب الاجتماعي

الموضوع	الصفحة

الموضوع	صفحة

فهرس الأحاديث

حرف الألف

الحديث	صفحة

الحديث	صفحة

الحديث	الصفحة

(حرف الحاء)

(حرف الدال)

(حرف الراء)

(حرف السين)

(حرف الشين)

(حرف الصاد)

الحديث — الصفحة

(حرف الضاد)

(حرف الطاء)

(حرف العين)

(حرف الفاء)

(حرف القاف)

(حرف الميم)

الصفحة | الحديث

(حرف النون)

(حرف الهاء)